مصر المحبة والسلام
بين المسيحية والإسلام

الجزء الأول
المسيحية فى مصر

د. حسين كفافى

إهـــداء

أهدى هذا الكتاب إلى أرواح شهداء مصر ، الذين حملوا مسيرة الإنسانية ومشاعل الدين والتوحيد ، بما فيها من عذاب واستشهاد .. من عهد دقلديانوس مرورا بجميع عصور القهر والعبودية حتى عبور أكتوبر المجيد الذى استشهد فيه المسيحى والمسلم دون أدنى فرق .

د. حسين كفافى

الفهرس

هذا الكتاب ... لماذا ؟

هذا الكتاب رسالة حب إلى المصريين كافة .. مسلمين ومسيحيين ، تؤكد هذه الرسالة أسس الوحدة بين أبناء الشعب العريق .. رباط الدم والجنس الواحد .. التاريخ الطويل.. المصلحة والمستقبل المشترك .. لقد دخل مصر – خلال تاريخها الطويل – الكثير من الإغريق والفرس والرومان ..اندحر منهم الكثير وبقى القليل ، لينصهر في بوتقة الشعب والوطن الواحد ثم اعتنق بعض المصريين –الأقباط– (المسيحيين) الإسلام .

وأيا كانت أسباب دخول المصريين الإسلام وانتظامهم فى صفوفه ، سواء أكانت اقتناعا بالدين الجديد ، أوحبا فيه ، أو رغبة فى المساهمة والمشاركة فى تحرير مصر من نير الاستعمار والاحتلال الرومانى وطرده ، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة ، إلا أن هناك حقيقية هامة واضحة تبدو أمام الجميع ولاسيما دارسو تاريخ مصر ، هذه الحقيقة هى أن الوحدة الوطنية ، كانت دائما الأساس القوى الثابت ، الذى لايضعف ولايلين أمام مايقوم به أعداء مصر لافتعال الفتنة ، أو تغذية أسبابها ودواعيها ، لدى المتعصبين الذين يقعون فى شرك السياسة التى تهدف إلى تفتيت وحدة الشعب ، التى كانت تخرج من جولاتها مع الاستعمار أشد قوة وأكثر تماسكا .

سبق ان صدرت بعض المؤلفات فى هذا الموضوع وإنه ليشرفنى أن أتصدى لهذه الرسالة .. امتدادا لمن سبقونا فى هذا الصدد .. وخاصة الحديث عن الجوانب الاجتماعية والإنسانية العلاقة الحميمة بين المسلمين وإخوانهم الأقباط المسيحيين ، فطبقا لعلم الوراثة فإن الإنسان يحمل فى الغالب الأعم معظم صفات الأخوال ، وأيضا يحمل فى وجدانه الحب والمعزة والتقدير ، وأيضا لم يؤرخ التطور لهذه العلاقة ، بما تحوية من علاقات اجتماعية وإنسانية ، قد يكون لهم العذر كل العذر ، إذ أن الأحداث متلاحقة ، ولم تسجل فى حينها ولم توثق فى وقتها ، وماسجل بالفعل منها يشوبه الغموض ولم يكشف استارها أو يحل غموضها أحد ، على مايبدو أن ذلك مرجعه إلىتلاحق الحوادث إذ أن الأحداث كانت تسابق الزمن فى تلاحقها ، لذلك جاءت أقوال المؤرخين متضاربة أحيانا ، مبالغ فيها وكثيرا ماتأتى كأنها صور من الخيال أو حواديت ، وفى هذا المجال يقول دكتور بتلر فى مقدمتة لكتابه الشهير فتح مصر ، عن الظلام الذى يلف هذا الموضوع وهذه الفترة كلها : فكان الوالج فى هذا الظلام الدامس مقدما على تيه حالك من الخلاف والتناقض ، وقد يلوح قولنا هذا كأن فيه مغالاة ومبالغة ، ولكنه الحق الذى لاشك فيه ، ويعززه رأى كاتب معروف وهو (Brooks.w.e) إذ يقول فى هذا الصدد "وقل أن نجد حادثا هاما من حوادث التاريخ قد خفيت أخباره واختلفت

رواياتها كما هو حال تاريخ فتح الاسكندرية ، حقا إن تاريخ غزو العرب للدولة الرومانية كله تاريخ معتم غامض ولكن تاريخ مصر أشد إعتاما وحلوكة ".

ومرورا بكل المؤرخين الأوائل ، خلال المراجع التى رجعنا إليها فى تاريخ هذه العصور ، منذ وصول السيدة البتول إلى مصر وفى صحبتها ابنها يسوع .. حتى نهاية القرن العشرين .. أى طيلة عشرين قرنا .. كنت أثناء كتابتى ومراجعتى وتدقيقى فيما بين السطور أتوه فى التضارب بين المؤرخين بداية بالواقدى فى القرن الثامن والبلازدى وعبد الحكم وابن قتيبيه والطبرى فى القرن التاسع وياقوت وأبو الفرج والنووى والقزوينى فى القرن الثالث عشر وابو الفدا وابن خلدون فى القرن الرابع عشر والمقريزى وابن حجر العقسلانى وأبو المحاسن والسيوطى فى القرن الخامس عشر.

وهكذا كان الكثير من الكتابات تنقل عن الأوائل بما فيه من حقائق وخيالات ، ومن المؤرخين المصريين الأقباط سعيد بن بطريق ، والأسقف ساويرس (ابن المقفع) جاءت أخبار الكنيسة القبطية على درجة كبيرة من الأمانة ، وكان على قمة هؤلاء الكتاب القس منسى يوحنا فى كتابه تاريخ الكنيسة القبطية وأيضا المؤرخة العظيمة الراحلة ابريس حبيب المصرى فى قصة الكنيسة القبطية "الأجزاء الخمسة" .

وخلال هذا الحشد الهائل من الكتابات لانملك إلا القرائن القليلة المتاحة ، وسياق الأحداث ومنطق الأمور

وتسلسلها لكى ندعم بها خيالنا ، وفى النهاية وجدت أنه من الضرورى والأولى بنا ، والأحق لنا والأجدر بنا أن نتولى كتابه تطور علاقة الأجداد الأوائل ، وأن نسجل هذه الفترة الخصبة من تاريخ مصر بعين المصريين ، أقصد أحد المصريين .

وفى مجال - هل المصريون كانوا يرحبون بالغزاة دائما ، فالشعب المصرى فى إجماله شعب ودود ورحيم ، كرمه الله فى الانجيل عندما ذكر شعب مصر وباركه (مبارك ياشعب مصر) وكذلك ذكر اللـه سبحانه وتعالى مصر فى القرآن أيضا بكل حب أكثر من مرة .. فلم تكن العنصرية أساسا فى خلاف ، فالمصرى يعرف حق الجار على جاره ولم يكن الدين أساسا فى اختلاف .فالشعب المصرى تمسك بانسانيته ووطنيتة فإننا نقول أن المصريين كانوا دائما يشعرون بأنهم أمة متماسكة فيما بينها .

تحافظ على استقلالها وشخصيتها من أن تندمج فى أمة أخرى ، وهكذا حافظت هذه الأمة على شخصيتها ولم تكن لترضى بأن نفتح ذراعيها لكل سيد جديد وتقف فى وجه السيد القديم ، بل كل مافعلته أن بقيت مكانها لاتحرك ساكنا برغبتها ، تاركة ميدان القتال بين المنافسين إذ لم يكن لها مصلحة فى الدفاع عن سيد أذاقها من العذاب الكثير فى محاولتة القضاء على استقلالها .

وهكذا تظهر الأمة المصرية في ثوب العزة والأنفة وهى الأمة التى تسلل الإسلام إلى قلوب الكثير منها حتى من بقى مسيحيا.

وفى هذا يقول المفكر الكبير مكرم عبيد إننى مسلم وطنا ومسيحى دينا . ونحن من ناحيتنا لا نركن إلى العواطف الجياشة ولا نستسلم للخيال الجامح ... ولكننا نستسلم لحب المصريين ومصر فقط ، وكانت الوثائق المحايدة ومنطق الأمور رائدنا ..

وهكذا جاهدنا فى الكتابه بحياد ومنطق وصدق وفى هذا الصدد سوف نستوثق معا عزيزى القارئ أن المصريين جنس واحد ودم واحد من رحم واحد، فالمصريون (الاقباط) هم أخوال المسلمين فى الغالب الأعم وأيضا أولاد عم بدرجة أخرى.

وهكذا يضم المصريين كلهم وطن واحد أوتضمهم وطنية واحدة كما يقول الدكتور فؤاد اسكندر.

وان كانت الأهرمات قد شهدت على روعة الحضارة المصرية وأثرها فان الوحدة الوطنية ، دليل على عراقة وأصاله هذا الشعب العظيم ، الذى رحب على أرضه وفى قلوب أفراده ، بالأديان السماوية ، مع بقاء كل منهم عل دينه وعقيدته ، فيبقى فى النهاية شئ مؤكد واحد وهو أنهم إخوة ، دماؤهم واحدة ، وجنسهم واحد ، وعنصرهم واحد ... حيث الدين لله والوطن للجميع ، أما ما يحدث أحيانا وعلى فترات متباعدة من التباس فى الأمور أو من فتن مصطنعة ، فهى سحب

طارئة ، تظهر قليلا ثم تزول ، ولاتترك خلفها إلا شعبا متحدا عطوفا لايعرف الفرقة ولا الانقسام .

وسوف نلمس تلك الحقيقة من خلال ما سنعرضه على صفحات جزئى هذا الكتاب ، فمنذ احتلال الفرس لمصر فى مطلع القرن السابع الميلادى ، قتل قائد الاحتلال الفارسى فى مدينة الاسكندرية فى يوم واحد ثمانين ألف رجل ودمر الأديرة وخربها ونهبها وشرد من بها من رهبان وراهبات ، وحول مدينة الاسكندرية وفى صحرائها تم تخريب ٦٢٠ ديرا ، وفى الصعيد فى منطقة نيقوس تم قتل ستة آلاف راهب فى يوم واحد .

وعندما خرج الفرس ، ودخل الروم مرة ثانية كان همهم الابتزاز والقهر وبلغ سخط المصريين عليهم أشده خصوصا عندما رأوا أن ملوك و أباطرة القسطنطينية كانوا – يرون شغلهم الوحيد هو إرغامهم على اعتناق مذهب الإمبراطور واستمر الاضطهاد للمصريين الأرثوذكس أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة (المونوفزتين) ، وتحملوا البلاء واستمرت مطاردتهم وقتلهم وأغتصاب مابقى من كنائسهم ، وسلب منازلهم ، حتى أشرفت مملكة الروم على الزوال ، وأصبحت فى حال انحطاط كامل بسبب التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية ، ولهذا السبب كثرت القلاقل فى البلاد واهتزت واضطربت هيبة الامبراطوية البيزنطية فى عيون المصريين لاسيما أنهم كانوا يشاهدون قرب سقوطهما ، وما كان يترصدها من كل الجهات ، فاستعمل الحكام

والولاة العنف والقوة فى تنفيذ أغراضهم ..... فكان ذلك داعيا إلى سخط الأهالى على الحكام ، وتعديهم عليهم والسعى إلى إخراجهم من مصر إلىأن وصل الظلم إلى آخر مداه ، والبطش إلىمنتهاة ..... بأن عين هرقل كيرس (المقوس) واليا وبطريركا على مصر حينذاك هرب (البابا بنيامين) من ظلم وعسف الاستعمار البيزنطى ولأنه لم يستطع أن يتجاوب مع العقيدة المستوردة ... عقيدة الطبيعتين ....

واستمر اختفاء البابا بنيامين البابا الشرعى للبلاد – طيله ثلاثة عشر عاما كاملة ، تعرضت فيها البلاد للخراب وأصبحت الكنائس أطلالا والأديرة خرابا .

وتستمر المسيرة فى الجزء الأول من هذا الكتاب حتى تطلع عمرو بن العاص إلى تحرير مصر من الحكم البيزنطى .

وأخيرا وليس آخرا عزيزى القارى عذرا من وجود قصور أو تقصير فى وصول هذا الكتب إلى ما نرجوه وما كنت أرجوه ، فقد فكرت أكثر من مرة أن أعيد ترتيب الكتاب ، أو أعيد ترتيب أوراقه أو فصوله أو إلغاء بعض الفصول ، تجنبا للتكرار أو إضافة شئ هنا أو هناك ، ومضى الكتاب ... لشهور لا أستطيع أن أفعل شئ من كل هذا وأصبحث كثير الشكوى من كثرة الأعمال وملاحقة المسئوليات ، ولازمنى القلق ...

وأخيرا بلقائى مع العلامة والجغرافى النابغة الدكتور أحمد إسماعيل ذكرنى بالعماد الأصفهانى –

وكان شاعرا معروف القدر ، وكاتب الإنشاء فى القرن السادس الهجرى – بقوله : "إنى رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا فى يومه إلا قال فى غده لو غير هذا لكان أحسن .. ولو زيد كذا لكان يستحسن .. ولو قدم هذا لكان أفضل .. ولو ترك هذا لكان أجمل ، هذا من أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر".

وبذلك حسم الأمر ، وألقيت بنصوص هذا الكتاب إلى المطابع والله فعال لما يريد .. فنحن من جملة البشر .

عزيزى القارئ .. أرجو أن تترك كلماتى تخاطب وجدانك وعقلك وروحك فهذه الرسالة هى كلمة صادقة من قلب مفعم بالحب لكل المصريين مسيحيون ومسلمين أودعها هذا الكتاب .

"وعلى الله قصر السبيل"

د. حسين كفافى

الـفـصـــل الأول

مصر والمسيحية

"اذهب ياشيطان لأنه مكتوب للرب
إلهك تسجد وإياة وحده تعبد"

"إنجيل متى الإصحاح الرابع آية(١٠)"

مصر والمسيحية

كانت مصر دائما ، أرض الاديان وشعبها شعب نشأ وتربى على قيم الإيمان والتوحيد ، منذ الفرعون إخناتون أول الموحدين ، ومن قبله جاء سيدنا إبراهيم نبى الله إلى مصر بحثا عن عقيلته سارة بعد خطفها وبيعها إلى فرعون مصر ...... وبعدهما جاء أنبياء ورسل عديدون فجاء يعقوب حفيد أبو الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ليصاحب ابنه يوسف الذى نشاء فى القصور الملكية الفرعونية فى تانيس ، ومن بعدهما تبنى الفرعون أيضا سيدنا موسى وهكذا كانت مصر أرض الأديان والأنبياء والرسل ومهبط الرسالات ، وتستمر مسيرة التوحيد إلىأن جاء عصر النور

والخلاص ، عندما رزقت السيدة مريم البتول بابنها عيسى المسيح ، وبدأ وهو فى المهد يبشر بالمسيحية.

هنا يبدأ إليهود فى الإحساس بالخطر ، فقد تحققت النبوءة فى ملاحقتة هُو وأمه .....ورموها بالفسوق وكل ما هى منه براء........ فاضطرت السيدة مريم إلىالهرب ، ومعها ابنها الطفل .. المسيح من ظلم الرومان ومكائد اليهود ، خوفا على حياتهما .... تركت مريم بيت خالها فى بيت لحم فلسطين ... ولم يكن هناك مأوى تلجأ إليه الا الأرض المباركة مصر ..... ولم يكن هناك شعب أرحم بها ولا أرض أحن عليها وعلى وليدها – الذى مازال فى المهد – غير شعب مصر ....

وظلت السيدة مريم ومعها ابنها يسوع تتنقل من مكان إلى مكان متخفين عن جنود الرومان ، إذ كان الجواسيس من وثنيين ويهود يتابعونهم أينما حلوا ومتى رحلوا ... ولانملك تحت أيدينا المدة التى عاشها يسوع فى مصر ولا يقينا الشهود أو السنين التى جال فيها ربوع مصر ولكن المحقق انه استمر – على الأقل – حتى موت هيرودوس ، أما إذا كان قد بقى بعد هيرودوس بمصر*، فهذا لا نعلمه ، والقول فى هذا الشأن كثير ، فبعضهم يظنون أنه مكث سنتين ، وغيرهم أربعة سنوات ، وبعضهم ست سنوات والله أعلم [١] .

واستمرت الدعوة المسيحية من خلال تلاميذ المسيح والحواربين الذين يقومون بالتبشير والدعوة (الكرازة) للدين الحق للعالم أجمع وللخليقة كلها فالإيمان

المسيحى كان ينتشر سريعا ليضرب بجذورة فى أعماق وجدان البشرية كلها ، ويمتد فى أحشاء الإنسانية طولا وعرضا . ولكنه كان فى أحشاء ووجدان الشعب المصرى أكثر عمقا ... معلنا بإيمان بما جاء على لسان السيد المسيح فى رده على طلب الشيطان أن يسجد له نظير وعده له بأن يملكه ممالك العالم ومدنة ، حينئذ قال له المسيح . "**اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد**" . كما ورد فى إنجيل متى الإصحاح الرابع الآية رقم ١٠.

كانت حينذاك الإمبراطورية الرومانية كلها تسعد بالوثنية وتقدم القرابين للآلهة - وكان الكهنة خلال هذا المناخ هم المستفيدون بهذه القرابين ..... وكان الشعب يبذل الغالى والنفيس من أجل غسل الخطايا ورفع الذنوب والخلاص من كل ما أرتكبوة من آثام .

بدأت الديانة المسيحية تنتشر ببطء خلال شعوب الإمبراطورية ..... وكان الشعب المصرى ، أو نستطيع أن تقول الشعب القبطى egypto هو أكثر شعوب الإمبراطورية استجابة للدين الجديد .... فهو شعب متدين بطبيعته ، له حضارتة وثقافتة ووجدانه منذ قدوم سيدنا ونبينا إبراهيم ، ومن بعده سيدنا يوسف عليهما السلام ومنذ ولد النبى موسى عليه السلام فى أرض جاشان فى مصر أيضا.فهو شعب له فلسفتة فى الدين وله جذوره فى الوحدانية ، وله تقاليدة فى الأخلاق والمثل العليا والإيثار ، واحترام الصغير للكبير ،

وعطف الكبير على الصغير ، وأيضا العطف على الكهل ، وعلى المريض وتبجيل الوالدين ، وتكريم الأم وتقديسها ، وتكريم المرأة عموما ووضعها فى مكانها المناسب ، فهى محور الأسرة ، والأسرة نواة المجتمع لهذا كله ... فالمصريون أول من جاهد بالدين الجديد ، وحملوا لواءة وبذلوا كل شئ من أجل حماية السيدة مريم البتول ، والسيد المسيح فكان هؤلاء المسيحيون الأوائل والمصريون على وجه الخصوص يسببون أرقا مستمرا للإمبراطورية ، بداية بالإمبراطور ، وحاشيتة من القادة والضباط ونهاية بالجنود والأتباع ...... وكان من الضرورى فى المقابل أن يقوم الإمبراطور ورجاله بالتصدى لهذا الدين الجديد ، وهؤلاء الذين يقومون بنشره ولكل من يعتنق هذا الفكر الجديد .... فى أول الأمر اعتقد الإمبراطور ورجاله أن هذا الدين ماهو إلا نحلة أو مذهب جديد من مذاهب اليهود المنتشرين فى أنحاء الإمبراطورية ..... ولكن سرعان ما ظهر أن الدين يكشف اليهود وما حرفوة من شريعة موسى وأيضا يعريها من ماديتها ، فبدأ اليهود فى الكيد ضد السيد المسيح وتلاميذه وحوارييه .... وقصة يهوذا الأسخريوطى مازالت ماثلة فى أذهان البشرية ، حينما باع المسيح وأبلغ عنه جنود الإمبراطور ، أن الذى سيقابله بعد العشاء مع الحواريين هو المسيح ، وبالفعل ما أن انتهوا من العشاء – جميعا - والمسيح وتلاميذه مازالوا على المائدة التى نزلت من السماء ، قبض

الجنود الرومان على السيد المسيح .. وذهبت القصص تنسج حول صلبه .

وأيا كانت القصص والاختلافات والانشقاقات التى وصلت إلىحد القتل بين طوائف وجماعات تلاميذ المسيح والحواريين فإن الديانة الميسحية انتشرت فى العالم ، وكان لمصر بالتحديد دور فى انتشار العقيدة وتشكيلها بما لمصر من تراث فى الفكر والفلسفة والدين والتوحيد ، وأيضا تعدد الآلهة ، أو تعدد الصفات فى إله واحد ، كل هذا واليهود يحاربون الدين الجديد .

استميحك عذرا عزيزى القارئ فى أن نرجع إلى الوراء قليلا لتدرك مدى ترقبهم وانتظارهم لهذا الدين الجديد .

فقد بشر اليهود فى العهد القديم (التواراة) بظهور المسيح ليخلصهم مما هم فيه من ضلال .... وفعلا انتظروه وتوقعوا مجيأه .. وتنبأ أنبياء اليهود بقدوم المسيح ووصفوه بسلوكه الوديع الهادئ المتواضع وبكل صفاتة (لا يصيح ولا يرفع ولا يسمع فى الشارع صوتة) (سفر اشعيا ٤٢ آية ٢سفر زكريا ٩ آية ٩) ومع ذلك - وكما ذكرنا - تربصوا به ولاغرو فى ذلك كما وصفهم القرآن الكريم بقتلة الانبياء .... قد أعمت أعينهم روح التمرد والكبرياء التى كانت تعتمل فى داخل قلوبهم وفى صدورهم واستمروا فى عنجهيتهم يصمون الآذان عن سماع كلام السيد المسيح ومواعظه .. اذ كانو يعتدون بأصلهم بأنهم من ذرية إبراهيم عليه السلام أبى

الأنبياء ، وأنهم شعب الله المختار فكيف ينصاعون لبشر أيا كان ...... وأخيرا اجتمعوا وقاموا على المسيح يوشون به إلىالحكام ليعدموه، متحملين قصاص جريمتهم هم ونسلهم من بعدهم دمه علينا وعلى أولادنا .... (انجيل متى اصحاح ٢٧ آية ٢٥) ص٥٣ح المصدر السابق . واستمروا بعدما فعلوه بالمسيح - فىغيهم - يلاحقون المسيحيين الطيبيين محاولين استئصالهم من أوطانهم ، وكانت أساليبهم فى ذلك ثلاثة أساليب :

أولا: الأسلوب المباشر : بالتعذيب والانتقام .

ثانيا: أسلوب الوشاية : لدى السلطات الرومانية أو أى حكام فيما بعد - فهم دائما يتقربون للحكام لينالوا من المسيحيين ، وفيما بعد من المسلمين والمسيحيين وخلق الوقيعة بينهما .

ثالثا: أسلوب الخداع: وهو أسلوب تحريف الفكر السليم.

فتلك هى محاولاتهم الدؤوبة لتحريف الإنجيل وخلق المذاهب المغرضة العديدة حتى تضرب من الداخل بعضها البعض بالنزاع والتشاجر بين أتباعهما أى فيما بينهم من داخل المجتمع . وفيما يلى سوف نستعرض معا تاريخ وصور التعذيب العديدة من الضرب بالسياط والمطاط [٢] والكماشات وحرق المسيحيين بالنار والمشاعل والزيت المغلى . ويمزقون أجسادهم وتقطع رؤوسهم ويموتون جوعا ويصلبون .

وقد استمر هذا التعذيب والاضطهاد أعواما عديدة ، فلم يكن يمر يوم إلا وكان يعذب فيه المئات من المسيحيين ، وكانت كلما انتهت محاكمة فرقة منهم قدمت المجموعة الأخرى التى تليها وكان المسيحيون المحكوم عليهم يساقون وهم فى نزعات الموت يرتلون المزامير ، والمدائح لخالقهم وفاديهم القدوس . وكانت الإسكندرية وقتذاك مدينة شهيرة بما لها من أثر على الثقافة العالمية إذ كانت جامعتها العريقة ، وكلياتها المختلفة وأقسامها العديدة فى كل العلوم الدينية والدنيوية من فلسفة ولاهوت ولغات وديانات قديمة وتاريخ وزراعة وطب وهندسة وفلك وكيمياء وصيدلية ، تضم صفوة من الأساتذة والفلاسفة، والنساك فى شتى العلوم التجريبية والفلسفية ، وأيضا كانت الإسكندرية تضم مكتبة غنية بمقتنياتها من كتب وأبحاث ودراسات وبرديات واستطاعت المدينة العريقة أن تستقطب هذه الديانة الجديدة وكان لظهور هذه الديانة الجديدة فى الإسكندرية بتفوقها وثقافتها ، وحضارتها وغناها وكانت أيضا أكبر ميناء فى شرق البحر الأبيض المتوسط واستطاعت الإسكندرية أن تكون مركزا لإشعاع الدين المسيحى فى أنحاء مصر السفلى ومصر الوسطى ومصر العليا بصرف النظر عن أن مؤسس الكنيسة المرقسية هو مرقص الرسول أحد الحواريين عند نزوله الإسكندرية عام ٥٠ ميلادية أو بعد رحيله فقد اعتبر الحكام الرومان المسيحية بادئ الأمر إحدى النحل اليهودية – كما جاء

ذكر ذلك فى الأوراق السابقة – فتركوها وشأنها اذ كانت روما متسامحة كل التسامح فى المسائل الدينية ، ولم تحاول أن تستأصل شأفة أى عبادة جديدة*إلا اذا كانت منافية للمبادئ الأخلاقية ، أو لتعارضها مع السياسة العامة ، أما فيما بعد فقد اعتبر المسيحيون مواطنين أشرارا وذلك بفعل مكائد ودسائس اليهود – وأيضا عنصرا خطرا ضد المجتمع ليس فقط لأنهم كانو يترفعون عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية ولايشتركون فى عبادة روما المؤلهة ،أو

الروح الحارسة للإمبراطور ولا لأنهم لم يقدسوا صور الأباطرة ولكن تضامنهم وخلوتهم وقت التعبد كانا يوحيان بأنهم جماعة سرية ، كال لهم اليهود اتهامات من بينها ممارسة أبشع العادات كالزواج المحرم والشعائر المخلة بالآداب وإهراق الدماء ، وتقديم دماء الأطفال وغيرهم قربانا للآلهة طبقا للطقوس الخاصة بهم ، ومع ذلك كان حكام الولايات يحجمون أشد الإحجام فى معظم الأحيان عن تطبيق قانون العقوبات الرومانى عليهم ، كما وجد من الوثنيين وأقربائهم من كان يتسترون على أصدقائهم من المسحيين ، أو حتى من كانوا مستعدين مجرد استعدد للقيام بهذا الدور مع تطبيق قانون العقوبات الرومانى ، لكن طريقة التطبيق كانت تتعامل مع المسيحيين بطريقة تتجاوز حدود ماهو مألوف ، فكان العذاب والقسوة هما الأساس فى التشفى من هؤلاء المساكين ، الذين لم يسيئوأ لأحد ولم يسببوا ضررا لأحد

، وهذا كله من كيد اليهود. واستمر العذاب خلال قصص الشهداء وسير بطولات المؤمنين وتضحياتهم وروحانياتهم ، وهكذا كان صمود وصلابة هؤلاء المؤمنون المسيحيون ... وما سوف نطالعه عزيزى القارئ فى الأوراق التالية .

هوامش الفصل الأول

١- القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة ، صـ ٩ .

٢- القمص شنودة السريانى - الاستشهاد فى المسيحية - مطبعة دار العالم العربى - طبعة فبراير ١٩٦٩ - صـ ٢ وما بعدها .

الفصل الثانى

التعذيب والتسابق للاستشهاد

دماء الشهداء بذار الكنيسة

(القرن الرابع الميلادى)
العلامة ترتليانوس

التعذيب والتسابق للاستشهاد

بعد ان استعرضنا فى الفصل الأول ، كيف انتشر الدين المسيحى فى أرجاء الإمبراطورية الرومانية بسرعة النار فى الهشيم فى يوم ريح عاصف وكالفيضان الكاسح لكل ما يعترضه ، ومنها بالطبع مصر وكيف تصدت فصائل اليهود للدين بالكيد والتآمر ، لهؤلاء المسيحيين البسطاء ، وكيف كالوا لهم الاتهامات الباطله ، ومن ناحية أخرى كيف كان هؤلاء المسيحيون يتسابقون زرافات ووحدانا - من أجل الاستشهاد - مؤكدين إيمانهم المسيحى ، حاملين صلبانهم ...

نستعرض فى هذا الفصل بعضا من صور البذل والتضحية من الذين أحبوا الله أكثر من أنفسهم . وضحوا بدمائهم من أجل رفع شأن الكنيسة ورفع شأن الدين المسيحى ، وكيف قدم هؤلاء المسيحيون أرواحهم نماذج للحب والبذل والإيمان ، ومحبة كل البشر حتى الأعداء ، وكيف كانوا يتحلون بروح المسيحية المفعمة بالحب ، بالحب الخالص ، الحب الباذل الحب الذى يستهين بكل شئ ويتخطى كل الصعاب ، ويصبر على الأزمات وفى هذا يقول القمص السريانى فى كتاب الاستشاد فى المسيحية "المسيحية هى ديانة الحب . فإلهنا هو الحب ذاتة (ايوحنا ٤ الاية ٨) ويتميز أتباعها عن غيرهم بالمحبة (انجيل يوحنا - الإصحاح ١٣ - الاية ٣٥) وقمة المحبة ما جاء بإنجيل متى الإصحاح ٥ - الأية ٤٤ أحبوا أعداءكم ، باركو لاعنيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم فمن لم يعرف المحبة لا يعرف الله .

ولهذا كانت المسيحية هى المحبة فى أبهى صورها وهى أيضا الألم فى مفهوم جديد ومذاق جديد لنشر الدين المجيد ، وكما أوضحنا أن المسيحية كانت تنتشر فى كل أنحاء الإمبراطورية وعلى رأسها مصر ، وكان للإسكندرية دور كبير فى حركة الديانة المسيحية ، فيما بين شعب الإسكندرية ومثقفيها وعلمائها وفلاسفتها وكهنتها ونساكها.... ويبدو أنه كان للمناقشات العلمية فى أمور الدين الجديد ، دور فى اتساع حدة الخلاف

وتجسيد العداء بين العلماء والفلاسفة والكهان والرهبان والنساك... أهل الاسكندرية من ناحية والرومان والحكام ورجال الإمبراطور من ناحية أخرى مما أضاع على المدينة مركزها كعاصمة لدولة مستقلة ، ورفض الإمبراطور أغسطس إنشاء مجلس للشورى لأهل الإسكندرية بينما أقر لليهود بجميع امتيازاتهم...... فقد كانت دوافع هجوم أهل الإسكندرية على اليهود أسهل من الهجوم على الرومان مباشرة ، وبلغ من جراء زيادة المذابح الطائفية في المدينة أن - تدخلت الحامية الرومانية لقمع الاضطرابات وإرسال الوفود من جانب الفريقين إلى الإمبراطور ، وإلى محاكمة بعض زعماء الإسكندرية أمام مجلس الإمبراطور وفي ذلك يقول الكاتب المؤرخ اليهودي - وشهد شاهد من أهله - وأسمة فيلون السكندري(PHLLON) في مؤلفه السفارة إلى جابوس (Legatio ad Gaiunm) وهو الإمبراطور الشهير (كاليجولا) (Caligola) وعهده فيما بين ٣٧ م -٤١ م ونشأ عن ذلك أدب الرسائل للاسكندريين Acta (Alexandrinorum) والذي يتشا به إلى حد كبير مع أعمال الشهداء المسيحيين ، وكانت هذه الرسائل تصف شجاعة الأبطال الأوائل وسوف نستعرض في الصفحات التالية [١] بعض الصور لما كان يحدث من ظلم وتعذيب واضطهاد للمسيحيين الأوئل من أدب الرسائل وهي قصة أحد مديري المعاهد الذي خاطب الإمبراطور بجرأة (وكان الامبراطور حينذاك كلوديوس الذي حكم

فى الفترة ما بين ٤١ م إلى عام ٥٤ ميلاديــة) قـائلا أنـت الإبن الذى تبرأت منه سالومى اليهودية وقد اعتبرت هذه المقولة من الناظر تطاولا على الإمبراطور ، واعتبر أن هذا الناظر قد قذف الإمبراطور ، بأبشع الأوصـاف.. وهكذا ظلت الاضطهادات والتعذيب بسبب وبدون سبب واستمرت المحاكمات الجائرة والصورية غير المنظمة حتى عصر الإمبراطور نيرون من عام ٥٤ حتى عام ٦٨ ميلادية - هذا الإمبراطور المجنون الذى أحرق روما وهو يعزف على قيثارته نغما نشازا وهو فى الحقيقة يرمى إلى أن يحرق المسيحيين من سكان روما اذ أصبح سكان روما كلهم مسيحيين واستمر التعذيب فى سائر أنحاء الإمبراطورية ، وعلى رأسها مصر ، حتى عصر الإمبراطور ديكيوس (Decius) الذى كان قد أصدر أمرا بأن يقدم جميع الرعايا بالإمبراطورية إلى السلطات شهادات تفيد تقديم الرعايا القرابين للآلهة الوثنية ، وأنه سكب الزيت على الأرض إكراما للآلهة . وكان الذين لايقدمون هذه الشهادات يعتبرون خارجين عن دين الآباء ، أى مسيحيين ، وفى هذا المناخ لجأ بعض المسيحيين ممن لم يثبت الإيمان فى قلوبهم إلى أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة حتى لايعذبوا ويكتموا الإيمان فى قلوبهم ، وكان المسيحيون الحقيقيون الأبطال ، يعتبرون هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم ضعاف النفوس والضمائر. وتعرض الذين رفضوا الامتثال لمرسوم الإمبراطور للاضطهاد والتعذيب بصورة وحشية وكان

الاضطهاد والتعذيب عموما يرجع إلى دوافع سياسية أكثر من رجوعه إلى دوافع دينية. ومن أقدم ماأرخ لهذه الفترة مادونه المؤرخ سيتونيوس (Suetonius) الوثني في هذا الصدد (في حوإلىعام ٥٢ طرد الإمبراطور كلوديوس اليهود من روما لتمردهم على السلطة ظانا أو معتقدا أن المسحيين الأوائل حرضوهم على التمرد ، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ شافت (Shaft) ممن شملهم منشور كلوديوس بطرد مواطنان من روما هما أكيلا وبرنتكلا لأنهما لستضافا فابولى الرسول وتقابلا في كورنتس وبشر برسالته العقيدية المشهورة وكان في طريقة إلى روما.....[٢].

وهكذا كانت السلطات تعاقب كل من يقابل أويجتمع بالرسل أو حتى التلاميذ والحواريين ... فقد كان بولس الرسول خلال رحلاتة وتبشيره بالمسيحية يقابل الكثيرين ويلبى دعواتهم ويبقى في ضيافتهم مثل ما حدث ولبى دعوة بعض الإخوة في مدينة صغيرة بجوار نابولى وعلى مقربة منها بحوإلى ٤٠ ميلا .. هرع مجموعة إخوة من سكان روما لاستقبال بولس الرسول.

ومع بداية الثلث الأخير من القرن الاول الميلادى ، بدأت المسيحية في الانتشار ، آخذة في الازدياد المطرد ، مما دفع المؤمنون الأوائل إلى بناء كنيسة في منطقة شرق الاسكندرية تسمى "بوكاليا" أى منطقة الأبقار أو مرعى البقر ، ويقال أنه في هذا الوقت أنشىء مارمرقس المدرسة اللاهوتية ، وأقام بسطى رئيسا لها ،

ثم أخذ يجوال فى جميع الأماكن التى يوجد بها المؤمنون متبتا إياهم على إيمانهم الأقدس ، وقد حدث فى يوم ٢٦ إبريل عام ٦٨م ، بينما كان المسيحيون يحتفلون بعيد الفصح ، والوثنيون يحتفلون بعيد إلاههم سيراسيس ، أخذ الرسول مرقص يقبح عبادة المخلوق ونهى سامعيه عن هذا الضلال ، وأرشدهم إلى طريق النور والحق والحياة ، وكان الوثنيون يبغضونه بغضا شديدا ، كلما رأوا نجاح عمله واتباع الوثنيين له ، ولما سمعوا منه هذه الأقوال ، استنكروها للغاية وهاجوا فى المدينة طالبين مرقس الرسول لتجرئه على آلهتهم فتربصوا له وضربوه وربطوا حبلا فى عنقه وأخذوا يطوفون به شوارع المدينة طاول النهار ، ويجرونه على الصخور حتى تمزق لحمه وتهشمت عظامه وسال دمه البرئ وهو صابرا متحملا الإهانات الشديدة والتحقير الكثير ، حتى أتى الليل فى السجن حيث ظهر له ملاك الرب فى رؤيا وشد من أزره وقوى عزيمته (٣) .

واستمر المسيحيون يلتفون حول الرسل والتلاميذ والحواريين ويزداد اضطهاد الأباطرة لهم إلى أن جاء الإمبراطور أومينان فيما بين ٨١ م و ٩٦ م فضاق بهم ذرعا ، وأمر بإبادة كل من هم من ذرية داوود ، فأرسل واستحضر من فلسطين اثنين من أقارب الرب يسوع بالجسد وهما حفيدا يهوذا المدعو أخا الرب ، لكن ما ان اطلع على ظروف فقرهما وحالتهما التى يرثى لها وبعد أن سمع منهما عن معنى ملك المسيح وأنه ليس ملكا

أرضيا عالميا حتى رق قلبه وعلى الفور أخلى سبيلهما . كما يؤكد ذلك قول المؤرخ باسينوس أو تاكيتوس Tacitusالوثنى المعاصر لهذه الأحداث بقوله : إن الخرافة المسيحية قد أخمدت لزمان ، يقصد مرسوم كلوديوس بإبعاد اليهود عن روما . والتى عادت للظهور ثانية تحت حكم نيرون فيما بين عام ٥٤ م وعام ٦٨ م ليعرف كيف اتهم اليهود المسيحيين فى السنين الأولى ظلما وبهتانا من قتل للأطفال وزنا بالمحارم واجتماعات المسيحيين السرية المسائية ، هكذا كان يتقرب اليهود من السلطات وهكذا كان اليهود بتأثير عقد نفسية قديمة من أثر ماعانوه من الأسر البابلى أيام نبوخذ نصر ... وحريق الهيكل ... وخراب أورشليم على يد الرومان عام ٧٠ ميلادية وبعد ذلك جاء عهد الإمبراطور تيسوس .... فتكاتفت الظروف ضد المسيحيين بتصفيتهم جسديا بالقتل والذبح والحرق وبالوسائل المختلفة ويتركهم منفردين مع الحيوانات المفترسة لتسلية أهالى روما والمدن الكبرى ثم عادت الكرة ثانية بثورة أوعصيان باركوكبا – ابن الكوكب (bar-Cochba المسلح ضد الدولة االرومانية فى عهد(هادريان) الإمبراطور فى عام ١٣٥ م فختمت مصيرهم كإمارة وكقومية بالإبادة والهجرة من فلسطين غداة تدمير أورشليم (القدس) والهيكل اليهودى بها مرة أخرى ومن وقتها تحولت الشخصية اليهودية إلى شخصية مستضعفة خائفة مذعورة كما يقول هنتجتون المؤرخ اليهودى ، تريد أن تحقق أغراضها

بالتزلف إلى الحكام وبالمكر والخديعة ، فضاعفوا لهم الكيل ضعفين فى وسائلهم ضد المسيحيين إثر عدائهم القديم للإغريق ، فمنذ ظهور المسيحية واليهود لها بالمرصاد ومنذ رحلات الرسل للتبشير كان اليهود يشككون فى أقوال الرسل ويؤكدون على نقاط الاختلاف فى أقوال الدعاة والتلاميذ والحواريين ، وتعميقها ، لخلق عوامل الفرقة وتأكيد عوامل الخلاف ومحاولة خلق عوامل فرقة جديدة ، وبذلك يضعون عوامل عرقلة الدعوة والكرازة العالمية "المسكونية" ، ومثل ما حدث فيما بعد فى صدر الإسلام عندما وضعوا بذرة التشيع والتى خرجت منها عشرات النحل والمذاهب التى تخرج عن الإسلام بدرجات متفاوتة مثل البهائية والقاديانية والعلوية والاثنى عشرية وأيضا مذاهب جديدة لتكفير المسلمين.. وبعد ذلك استطاع إليهود أن يزيدوا الفرقة المسيحية بخلق مذاهب غريبة مثل شهود يهوة والسبتيين.. والماسونية والإلحاد ..... نعود مرة ثانية إلى أساليب التعذيب التى أتخذها الرومان فى مجال تعذيب المسيحيين والتى ليس لها مثيل ، فقد مثلوا بهم وجعلوا منهم تسلية ... لأهل روما ولاهالى المدن الكبرى ، فى هذا نتصور المسرح غاصا بالجماهير المنتظرة بشغف لهذه التسلية الهمجية المتعطشة للدماء ، وحفنة من المسيحيين واقفة فى وسط الملعب ، وفى المقابل أسد متحفز أو نمرضار أو مجموعة من الذئاب الجائعة ، أو الكلاب البرية المسعورة ، وتنطلق هذه

الحيوانــات مــن أقفاصـهــا ، وسـط تهليل المتفرجيــن المتعطشين للدماء. ويبدأ الصراع بين هؤلاء المسيحيين العزل من سـلاح إلا مـن سـلاح الإيمـان مـع هـذه الحيوانـات المسـعورة الجائعـة.... وفـي النهايـة يسـقط البشر ، وقد فتكـت بهم الحيوانـات ، يسقطون شـهداء ، ومن هؤلاء من لم يكـن نـال الشـهادة ويأتي الجنـود فـى النهايـة بالسيوف علـى رقابهم فتضـع حـدا لآلام هـذه الاجساد الممزقة أريا بنهاية طلبوها من أعدائهم وهـى الاستشهاد .. يالها من نهاية مأساوية بكل معـانى البـؤس والشقاء والعذاب والإيمان والحب لقاتليهم.

وفى نهاية القرن الثانى وبدء القرن الثـالث فـى عصر البابا ديمترى الذى استمر على رأس الكنيسـة معتليا كرسى البابوية ٤٢ سنة حدثت اضطرابات بمدينـة الاسكندرية ، مما دفـع لينوس الوالى الرومـانى علـى مصـر بمضاعفـة الاضطهـاد للشـعب وعلـى رأسـها البطريركية ، فهجمت حملـة مـن الجنـود الرومـان علـى البطريكيـة ونهبـوا أمتعتهـا وسـلبوا الأوانـى الفضيـة والذهبية وكل ما فيها مـن غـال ونفيس ، وقبـض علـى البطريرك نفسه ونفـى إلـى أوسيم التـى كـانت مزدهـرة حينذاك وبقى بها إلى أن هبطت حدة العذاب[٤] .

وهكذا تعاقبت جملة ملوك على المملكة الرومانيـة بعد فالريان ، فتعطلت موجـات التعذيـب علـى مصـر ، حتى اعتلى عرش الامبراطورية دقلديـانوس عـام ٢٨٤م وكان والى مصر حينذاك رجـل اسمه أخيلوس واستقل

بمصر ونادى بنفسه ملكا عليها واختار طيبة عاصمة له وأقام بها أربعة سنوات لم يتمكن "جالريوس" الوالى الرومانى فى خلالها من إخضاعه فاضطر الامبراطور دقلديانوس أن يحضر بنفسه إلى مصر ليقتص من أخيلوس على هذه المخالفة والجرأة ويخلص البلاد من يده ، ولدى وصوله حاصر الاسكندرية وضيق عليها تضييقا شديدا ، وبعد ثمانية أشهر فتحها عنوة واستولى عليها فأحرق المدينة، وفتك بأهلها فتكا ذريعا (٥) .

وكان قد ظن أن المسيحيين هم الذين أثاروا هذه الفتنة وناصروا أخيلوس ، فاستعمل معهم الظلم والعسف والجور فى ذلك وارتكب ما لا يخطر على بال أحد من المآثم والمظالم واقتفى أثر أخيلوس العاصى الذى هرب إلى داخل البلاد ، فكان القيصر أينما حل يوقع بهم ويقتلهم ويهدم كنائسهم ويخرب معابدهم ويعذب رؤساءهم ويسبى نسائهم وأولادهم ، وسبى كثير من أهل الاسكندرية وأباح لجنوده باقى أهلها ليفعلوا بهم ما يشاؤون فعاثوا فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل وقتلوا وفتكوا ونهبوا وسبواوأراقو الدماء أنهارا واشتدوا شدة لم يسبق لها مثيل .

واستمر دقلديانوس يعذب المسيحيين بأفظع أنواع العذاب رغبة فى تمزيق شملهم وحملهم على السجود للأصنام ، وروى بعض الآباء أن دقلديانوس ركب ظهر فرسه وأمر جنده أن لا يتركوا القتل حتى تسيل الدماء على الأرض وتعلوا حتى تصل إلى ركبة فرسه ، فكان

من الألطاف الإلهية أن سقطت به الفرس على الأرض فتلوثت ركبتاه بالدم فتم قوله وأبطلوا القتل، غير أن كثير من المسيحيين كانوا محبوسين وقدى عليهم بالموت أو بالنفى، ولما شعروا بأن دقلديانوس ينوى بهم شرا تركوا مصر وفروا إلى بلاد أخرى.

وقد استمر الاضطهاد جاريا فى مصر على المسيحيين فى ثلاث سنوات ففى نهائتها أصيب دقلديانوس بالجنون بعد أن ذاق المسيحيون ما لا يوصف من العذاب ، ووصف أسابيوس المؤرخ فى هذا الصدد من واقع مشاهدته (٦) : "إنه يصعب على الكاتب الماهر أن يصف ما تجرعه الشهداء فى صعيد مصر من عذاب قاس والأم تشيب لها النواصى ، فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء ويخدشون أجسادهم وينزعون عنها الجلد إلى أن ينكشف اللحم وهكذا يفعلون بباقى أجزاء الجسم إلى أن يموتوا ، أما النساء فكانت تربط إحداهن من إحدى قدميها وترفع فى الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد أن يخلعوا عنها ملابسها ويكشفوا كل جسمها وتظهر أمام جمهور المتفرجين بمظهر تنفر منه الإنسانية وتأباه كل النفوس الأبية" ، "وكثيرون ماتوا بواسطة الأشجار بالطريقة الآتية ، وهى أنهم كانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين بآلة وضعت لهذا الغرض ، ثم يجيئون بالشهيد ويربطونه بهذين الغصنين ثم يتركونهما ليعودا إلى أصلهما فهذا يعتدل لجهة اليمين مثلا والآخر

للشمال والشهيد بينهما تتمرق اضلاعه وتسحق عظامه سحقا ويتطاير جسمه فى الفضاء" .

ولم تكف هذه الفظائع أيام وشهور بل كانت تستمر سنينا طوالا وهى فى أفظع حالاتها ، وكثيرا ما كان يصدر حكم بقتل عشرة أشخاص في لحظة واحدة ، وأحيانا يقتلون عشرين رجلا مرة واحدة ، واحيانا ثلاثين وستين ، ومرة حكم على مائة رجل بالموت فماتوا فى يوم واحد مع زوجاتهم وأولادهم الصغار ، وذلك بعد أن ذاقوا من العذاب الوانا" [٧] .

وقد روى أوسابيوس أيضا قائلا :"وقد شاهدت بعينى بينما كنت واقفا أراقب جمعا غفيرا من المسيحيين جمعوا لينالوا الشهادة ، ولكن بطرق مختلفة ، فكان بعضهم تجز رؤوسهم ، وبعضهم يحرقون فى أتون النار المتقدة حتى ان السيف الذى كانت تقطع به الرؤوس قد فل حده وتحطم تحطيما لكثرة ما سحق من الرقاب ، وكذلك السيافون تعبوا وخارت قواهم من ذبح الأدميون فكانوا يستريحون لحظات ريثما يتنفسون الصعداء" ، "وفيما تقدم يتضح ولاشك اننا شهود عدول على [٨] ما شهدناه بايمننا من الغيرة الخارقة والقوة الإلهية الصحيحة والفرح فى الروح القدسى الذى ملأ قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح ابن لله ، إيمانا متينا جعلهم يتقبلون الموت بصدور منشرحة وثغور باسمة ، حتى انه عندما كان يصدر الحكم على واحد منهم بالإعدام كان الآخرون يندفعون من كل صوب مزدحمين فى

المحكمة أمام القاضى معترفين له بأنهم مسيحيون غير مبالين بما يلحق بهم من عذاب مريع واضطهاد شنيع بل كانوا يجاهرون بكل جرأة وشجاعة بديانتهم الحقيقية التى تعلم بوجود إله واحد عظيم خالق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها".

"ومن العجيب الغريب انه عندما كان يصدر الحكم النهائى بموتهم كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح وتهليل حتى انهم يرنمون ويرتلون أغانى الحمد والشكر لله الذى أهلهم لانهم يموتوا لأجله ، وكانوا يظلون يفرحون ويطربون إلى آخر نسمة فى حياتهم عندما تفارق أرواحهم أجسادهم" .

"نعم إن هذا غريب ولكن الأعجب من هذا كله أن الأفراد الذين اشتهروا بغناهم وثرواتهم والذين عرفوا بطيب محتدهم وشرف نسبهم وذاع صيتهم فى الآفاق خصوصا لانهم برعوا فى الفلسفة والعلم ونبغوا فى المعرفة والعرفان ، وهؤلاء كانوا يحسبون كل هذه الأمجاد والمزايا من سقط المتاع ، ويزدرون بها ازدراء فى جانب أهمية الدين الحقيقى والإيمان الصحيح بربنا ومخلصنا يسوع المسيح" (١) .

هكذا كانت الجهالة والوثنية متمثلة فى السلطات المسيطرة على كل مقاليد الأمور فى الإمبراطورية بكل أرجائها فى عداوة شديدة ، ومقاومة شرسة وكراهية لا تقاوم للمسيحية ، من بداية عهد العالم بها ومحاولة إبادتها وهى فى مهدها ولاسند لها ، اللهم إلا من ترس

الإيمان ، ودرع البر وخوذة الخلاص ، وسيف الروح الذى هو روح الله .. عن رساله بولس الرسول إلى أهل افسوس (الإصحاح ٦ الآيات من ١٤ إلى١٦ حتى ٣١٨) ظلت الحرب قائمة بين الطرفين ، حرب لاتكافؤ فيها ، حب وصبر من المسيحيين ، وجرائم وظلم من الإمبراطور ورجاله ... وظلت هذه الحروب وهذا الصراع قائما حتى مطلع القرن الرابع الميلادى حينما اندحرت وثنية الإمبراطورية الرومانية نهائيا ، وظهر مجد الصليب المسيحى ، ازداد عندئذ اليقين المسيحى بايمان الفصائل تعميقا لمفهوم العبادات والجلد والصبر على الاستشهاد وتحققت للعلامة ترتليانوس نبؤته القائلة : (**دماء الشهداء بذار الكنيسة**) وكان مصداق هذا أنه على بعد ميل واحد من روما عند قنطرة فلفيا . كان عند هذه القنطرة بداية مظاهر انتصار المسيحية على لسان قسطنطين عندما أعلن مرسوم ميلان عام ٣١٣ م .

هوامش الفصل الثانى

١- القمص شنودة السريانى - الاستشهاد فى المسيحية مطبعة دار العالم العربى - طبعة فبراير - صـ ٢٢ وما بعدها .
٢- القمص شنوُدة السريانى - الاستشهاد فى المسيحية - مطبعة دار العالم العربى - طبعة فبراير ١٩٦٩ صـ ٢٢ وما بعدها .
٣- الفمص منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ١٦ .
٤- القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ٢٤ .
٥- القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ١٧٧ .
٦- القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ١٧٨ .
٧- القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ٢٤.
٨- المرجع السابق صـ ٢٤ .
٩-الفس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ١٧٩ .

الفصل الثالث

الطريق إلى الرهبنة

"إن أراد أحد أن يأتى ورائى
فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى"
(إنجيل متى الإصحاح ١٦ أية ٢٤)

التعذيب والطريق إلى الرهبنة

فى الأوراق السابقة طالعنا سويا ، كيف كان الرومان يسومون المسيحين الأوائل سوء العذاب هم والشعوب المستعمرةالمقهورة على امتداد خريطة العالم القديم فى أوروبا وآسيا وأفريقيا ... وكان كل شعب يذوق العذاب بمقدار ولكن النصيب الأوفر والقدر الكبير من التعذيب كان لمصر والمصريين ، الذين كانو يتسابقون للاستشهاد لا يبالون بصور التعذيب العديدة ، فمصر كانت دائما الواحة لكل ضيف ، فقد استضافت المسيح ، وأحاط المصريون العائله المقدسة بالرعاية والحماية والحنان والحب ورأو السيد المسيح ، وقابلوا

السيدة البتول مريم ، خلال رحلتهم القاسية المليئة بالمخاطر والاستبسال من أجل الاستشهاد والموت في سبيل العقيدة المسيحية الجديدة ، فليس من رأى كمن سمع ، هكذا كان تعاطف المصريين مع العائلة المقدسة بالغا ومفعما بالحب والتقديس ، فقد راوا السيدة العذراء والسيد المسيح ولمسوهما وصافحوهما ورويت القصص والاحاديث عن هذه اللقاءات وأصبحت تراثا وعقيدة ، لذلك كان نصيب المصريين من قسوة التعذيب أشد وأنكى من أى شعب آخر من شعوب الإمبراطورية الرومانية ، فالمصريون آووا وحموا وتستروا على الأماكن التى أختبأت فيها العائله المقدسة ...

وتحتفظ لنا ذاكرة التاريخ ببعض صور التعذيب التى لاقاها المصريون الأوائل من جنود الرومان والولاة ، وهاك قصة أحد ولاة الصعيد ، وهى ولاية أنصنا - وهى المنطقة التى تضم مركز إسنا ، أى جنوب محافظة قنا الحالية وكما يبدو أن التعذيب فى صعيد مصر كان يضرب به المثل فى قسوته ، ولكنه الصابر الصبور ، وتقبل أهل مصر وصعيدها على وجه الخصوص لهذا التعذيب الوحشى ، بصبر ورضا ، وكان هذا الوالى يسمى أرجوس - ملكيا أكثر من الملك وإمبراطوريا أكثر من الإمبراطور ، يسعى لإرضاء سيده ، بتعذيب كل من يعتنق المسيحية ، وكل من يعلن عن اعتناقه الدين الجديد المسيحى يقدم الوالي أرجوس هذا ضحاياة المسيحيين قرابين ولاء للامبراطور وكان أثناء مروره

علـــى ولايتـــه ، يتفقـــد بنفســـه مـــدى تطبيـــق الأوامـــر الإمبراطوريـة وكيفيـة سـيطرة الجنـود والضبـاط علـى هؤلاء المسيحيين ، المتمردين على دين الآبـاء والأجداد ، الذين يسببون أرقـا مستمرا للإمبراطور ورجالـه مـن ولاة وقواد وجنود ، هذا القهر المستمر والعذاب المتزايد لأهل مصر دفع الكثير من الوثنيين أنفسهم للعطف علـى المسيحيين مـن كـثرة مـا شـاهدوه مـن شـدة الاضطهـاد والعذاب الواقع عليهم ، بل كانوا يتحملون عبء العقاب الواقع عليهم ، إن كان حكما بالسجن أو بأحكام الغرامة المتلاحقة بدون سبب أو بسبب تسترهم علـى جيرانهم المسيحيين ، وكان القديس أثناسيوس يقيم فى البطريركية الأرثوذكسية فى الإسكندرية ، يراقب كل شـئ ، ويسمع ويحلل ، وكان يكتب ويسجل الكثير مما يـراه .. وفيمـا كتب عن رواية "اكليمنتوس السـكندرى" بـأن الكثـير مـن المسيحيين كانوا يصلبون يوميا بواسطة الوثنييـن بإيعـاز من يهود الإسكندرية ، ومنهم من كـانت تقطـع رءوسـهم أو يحرقون أمام أعين أبنائهم ، مثل ما حدث لأحد أهالى الإسكندرية ، وكان يدعى "ليونيداس" ويبدو أنه كان مـن أعيان المدينة حينذاك وكان قـد أعتنـق المسـيحية ضمـن من اعتنقوها ، لذلك فقد قتـل بـأفظع مـا تكـون الوحشـية أمام ابنه "أوريجانوس" (١) .

وهـذه روايـة أخـرى عـن فتـاة كـانت تدعـى "بوتومينا" وكانت شابة صغيرة ما زالت عذراء على قدر كبير مـن الجمـال والفتنـة ذات أخـلاق حميدة ، اعتنقت

المسيحية ، حينذاك هددها الجنود بهتك عرضها ، والفتك بشرفها إن لم تترك هذا الدين وتعود إلى دين الآباء والأجداد ولكنها كانت ذات شخصية قوية ، وإيمان متين ، فتمسكت بدينها ، وبالفعل افترسها هؤلاء الجنود والضباط الحيوانات واعتدوا عليها وكان نصيبها في النهاية الحرق ، قد يكون الحرق هذا لإخفاء جريمتهم الأولى ، وهى هتك عرضها ، وماتت فى النهاية على أسوء ما يكون التعذيب والتمثيل والقتل .. وأعظم ما يكون الاستشهاد .

هذا شريط صغير قصير لذاكرة التاريخ عن بعض أحداث التعذيب التى لاقاها المصريون من قتل وحرق .. وفى كل مكان وزمان من الإسكندرية حتى حدود مصر الجنوبية .. في بلاد النوبة وما بعدها ... يلاحق كل المسيحيين المؤمنين ... وهكذا لم يستسلم المصريون للعذاب والقهر ولكنهم لاذوا بالصحراء والفيافى واحتموا بالمقابر المهجورة وبالمغارات هروبا من صنوف العذاب وألوان الهوان ، والتى صورها لنا المعاصرون لحكم الإمبراطور "دقلديانوس"وهى الفترة التى وصل فيها التعذيب إلى منتهاة والظلم إلى أقصاه لدرجة أن المصريين دون غيرهم من شعوب الإمبراطورية الرومانية قد اعتبروا عام ٢٨٤م بداية للتقويم المصرى – التقويم لعام الشهداء – لهذا كله فر الكثير من المؤمنين المصريين إلى الصحراء يتجمعون ويمارسون تعاليم الدين الجديد فى الخفاء ، وانتشرت

العبادة المسيحية تحت الأوض ، فكان البطاركة والشمامسة يقومون بالتدريس والتبشير فى المناطق النائية المعزولة والبعيدة عن أعين الرومان وجنود القيصر ، واستمرت المسيحية تنتشر هكذا سرا طيله ثلاثة قرون بعيدا عن متناول الأيدى الطويلة لجنود الرومان.

فكان الهروب بعيدا عن أعين السلطات من جنود الشرطة إلى الأماكن النائية ، وبدأ هذا الهروب أفرادا ثم تحول إلى جماعات صغيرة ، وبدأ فى مطلع القرن الثالث يأخذ شكل الظاهرة المتكررة ، ومع الوقت أصبح نمطا في العبادة والتنسك ، وكانت هذه الجماعات تختار بالطبع أماكن مناسبة فعندما يحطون رحالهم فى مكان يختارونة طبقا لوفرة سبل الحياة ، كوفرة المياة الجوفية المناسبة ، كأن يكون المكان به بئر فعلا - منتجة . أو بئر مهجورة يقومون بإعادة حفرها وتطهيرها ، وكان لكل جماعة منهم دليل على دراية بالصحراء ودروبها واستطلاع النجوم ومعرفة الاتجاهات ومع ذلك كانوا فى أحيان كثيرة يتوهون فى الصحراء ، ويفقدون طريقهم ويهلكون فنادرا ما كانوا يصلون إلى مقصدهم إلا بعد جهد جهيد....

وهكذا كانت الحكومة والأجهزة الأمنية ... هكذا فى كل زمان ومكان فى قلق من هذه الهجرات الجماعية ، فكانوا يتعقبونهم حتى وهم هاربون وهم يتعبدون بضمائرهم ويتهجدون بقلوبهم وصدورهم تحت الأرض

، وخلف الأسوار ، وفى الخرائب ، ومن كان يضبط منهم يسام ألوان العذاب فكانت محطاتهم الأخيرة الكهوف فى ثنايا التلال والجبال على تخوم الوادى وفى مقابر الفراعنة المهجورة ، وأطلال المعابد القديمة ، وأقاموا الأديرة بعد ذلك ، فكانت هذه الأديرة مراكز للاشعاع الدينى ، ومقرا للعبادة ، وهكذا بدأت بذرة الرهبنة ، بطريقة بدائية ، على الفطرة ، وكانت هذه المراكز الدينية أو هذه الأديرة متقاربة مثل دير الأنبا بولا ودير الأنبا أنطونيوس غرب ساحل البحر الأحمر ، (أقدم الأديرة فى العالم على الاطلاق) .

ولذلك فان الأنبا أنطونيوس - الذى أنشأ هذا الدير - يسمى أبو الرهبان أوكوكب البرية الشرقية أى الصحراء الشرقية .

وهكذا تقوم الأديرة بدورها فى تقديم أولادها بروحانياتهم الشفافة للكنيسة المصرية الأرثوذكسية وتستمر المسيرة القومية المصرية .... خلال هذه الحقبة من تاريخ مصر .

وأحيانا كثيرة كانت الأديرة متباعدة متناثرة فى الصحراوات المصرية سواء أكانت فى الصحراء الشرقية أو فى الصحراء الغربية أوسيناء .... فقد تصل المسافات بين الدير والدير الآخر إلى مئات الكيلو مترات ، مثل الأديرة الموجودة فى سيناء ، فيما بين دير الطور على ساحل خليج السويس ... ودير وادى الراحة (دير سانت كاترين) فى سفح جبل موسى وجبل كاترين

والدير الصغير فى وادى فيران . وأحيانا تكون الأديرة قريبة جدا من بعضها البعض مثل أديرة وادى النطرون.

وأيا كان الأمر من قرب الأديرة أوبعدها عن بعضها البعض أوكونها نائية وبعيدة عن الوادى والعمران ، فإنها تعد مدارس وحلقات درس ، حيث يتم تلقين التلاميذ الجدد من المسيحيين الدروس ، وكانت هذه الحلقات تحفها الريبة والحذر وتحيط بها الشكوك وينتاب مرتاديها الخوف والرعب والفزع ، فما أكثر العملاء والجواسيس الذين يندسون بين هؤلاء المؤمنين ويلبسون مسوح الرهبان ، ويتظاهرون بالخشوع وفى نفس الوقت يتجسسون عليهم وينقلون أخبارهم ويدسون عليهم الجديد من الأخبار المحرفة والمعلومات المشوشة ، والتى تهئ مناخا أكثر عزلةفيما بين هؤلاء المسيحيين بعضهم البعض ، فى هذه الظروف الموحشة والحياة القاحلة . وكان يصاحب اللجوء للصحراء هذه عبادة الله فى المغارات والكهوف والأديرة ، وأيضا فى المقابر الفرعونية المهجورة مثل مقابر الملكات فى الضفة الغربية من الأقصر ومناطق المقابر الفرعونية المتفرقة فى مصر مثل أبيدوس وأخميم وما حولها فى جبال الحواويش والسلامونى ومازالت آثار إقامة هؤلاء النساك والرهبان على حوائط وأسقف هذه المقابر ، وفى المنيا حيث مقابر بنى حسن وأسيوط وسيناء.... وبهذه المناسبة سوف نعرج إلىأعماق الصحراء المصرية

حيث البيئة النقية والهدوء ، فقد كانت مكانا مناسبا للرهبان طالبي الصفاء والهدوء هروبا من الظلم والعذاب الذى كانوا يلاقونة ولم يكن لهم من يحميهم أويدفع عنهم هذا العذاب سوى الموت نفسه ، فكانوا يهيمون على وجوههم هاربين ، يتعقبهم جنود وضباط الإمبراطور ، يقتلون من تصل إليه أيديهم........ ويتركون من يهرب لعله يهلك فى الصحراء من القيظ أو الجوع والعطش ، وكانت مجموعات الهاربين تتحرك خوفا من بطش جنود وضباط الإمبراطور فى تحفظ وحذر.

ومع مغيب الشمس ، عندما يتحرك الليل ليلف الكون بعباءته السوداء ويعم الظلام كانوا يفضلون السير فى جنح الليل لتجنب أشعة الشمس الحارقة خصوصا فى صحراء وحرارة الرمال المهلكة وندرة المياه فى هذه الصحراء المقفرة من ناحية ومن ناحية أخرى فان الليل يسترهم من أعين جنود الإمبراطور ، وكانوا يملكون طرقهم بمساعدة المرشدين الذين يعرفون مسالك الدروب والطرق فى الوديان والجبال بهداية النجوم والتى كان المصريون يدركون كنهها ويتفوقون فى معرفة أسرارها .

وكانوا يعرفون مواقع الآبار وكان بعض العابدين يؤثرون السلامة - ويفضلون أن يبقوا بجوار أهليهم يلجأون إلى مناطق قريبة فيبنون أديرتهم على ضفاف النيل وعلى تخوم الوادى ، والبعض أكثر حيطة كما

ذكرنا من قبل يلجأون إلى مناطق أبعد والبعض كان يغامر ويختار مناطق بعيدة جدا ويلجأ إلى أعماق الصحراء فى الواحات وفى سيناء مثل سانت كاترين أو الطور أو وادى فيران أو وادى غرندل والتى جاء ذكرها من قبل .

كانت مصر بطبيعة الحال كما أوضحنا سابقا غنية بالعلماء ورجال الدين والفلسفة والعلوم المختلفة الذين يعرفون الكثير عن الأديان وفلسفاتها وما تدعوا إليه ، منتشرين فى أكثر من جامعة ومدرسة على أرض مصر ، هناك فى الصعيد علماء طيبة وفى الشمال جامعة أون (عين شمس حاليا) – وعلى رأس هذه الجامعات والتجمعات العلمية جامعة الإسكندرية بما فيها من حشد هائل من العلماء ورجال الدين ، فكانت الجامعة تعج بالعلماء والمبعوثين من كل بقاع الامبراطورية الرومانية ، وكان الموضوع الرئيسى فى هذه الحقبه هو الديانة الجديدة ، وكانت المدرسة اللاهوتية التابعة لجامعة الاسكندرية مركزا لدراسات قانون الإيمان لهذه العقيدة الجديدة ، وكانت قلبا لكل الفكر اللاهوتى المعاصر حينذاك .

وهكذا كانت جامعة الإسكندرية بعلمائها المسيحيين تغلف الديانة الجديدة بالعلمانية وأصبحت الديانة الجديدة مجالا للفلسفة أو الهرطقة ، من كثرة النقاش حول الإيمان وقوانينه وطبيعة الإله ....

كانت المنطقة تعج بالفلسفات وتفور بالأفكار المختلفة تبعا للمذاهب الكثيرة والمشارب الفلسفية . وهاهو ميليتس أسقف ليكوبليس واختلافة مع القديس بطرس بابا الإسكندرية نفسه وقانون الإيمان أن الله واحد فى ثلاثة أقانيم ، وسابليوس وإيمانه بفكرة أن الإله واحد ولكن بعدة أسماء . وأيضا أريوس وإيمانه بوحدانية الله وأن الله أقدم من الابن السيد المسيح لأنه مخلوق به ...

وهكذا كانت المناقشات فى أروقة جامعة الإسكندرية ومدرسة اللاهوت وأيضا فى دهاليز الأديرة المنتشرة حوله وسرعان ما أدى هذا الاختلاف إلىالعداوات .

وتعدت المناقشات طبقة العلماء والمثقفين إلىبسطاء الشعب والعامة وبذلك أصبح العامة يرددون مايناقش فى دهاليز الجامعة والأديرة والكنائس.. بدون فهم أو أستيعاب ، فكانوا يتجادلون فى شوارع الاسكندرية ، ويصرخ الواحد منهم فى وجه الاخر قائلا : يا هرطوقى من الأكبر الوالد أم المولود ؟ وآخر يقول هل من المعقول أنه يوجد ابن قبل ولادتة ؟- وبالطبع لم يفهم هؤلاء البسطاء السذج أن لفظة ابن نسبه مجازية - لكنهم اتخذوها حرفية ، ومن ناحية أخرى كان أتباع أريوس يرددون فى الشوارع : أيمكن أن يوجد ولد قبل أن يولد ؟ (٢) .

وأيا كان من أمر اختلاف المشارب فى تفسير الظواهر الإلهية المحيطة – والذى وصل إلىحد الخلاف والاختلاف [٣] وقتل بعضهم بعضا .... فإننا فى هذه العجالة لم نشأ الا أن نلقى الضوء على أن المناقشات العلمية والفلسفية كانت محتدمة لدرجة انزواء القضية الأصلية والحقيقة الفطرية وهى وحدانية الله وأزليته ... والذى دفع بالكثير إلىالخروج إلىالفلاة للتعبد والعيش بعيدا فى الصحراء والجبال .. وفى هذا المجال لايسعنا الا أن نتذكر قصة أبى الرهبان الأنبا أنطونيوس الذى سلك طريق الرهبنة واتجة مع مجموعة من النساك إلىجوف الصحراء الشرقية – كما أشرنا من قبل – ومن الطبيعى أن يكون ضمن هذه المجموعة البناءون والنجارون والحدادون والفلاحون والصيادون ، والعمال العاديون ، وأيضا الأطباء ، وكان الأنبا أنطونيوس مصريا من أسرة طيبة ، والداه يمتلكان ثروة لابأس بها وكانا مسيحيين وأما عن الباعث له على الرهبنة فكانت هو روح التقشف والزهد منذ البداية مع المسيحية شأنه شأن كل العباد والنساك في هذا العصر ، وأيضا مما دفع هؤلاء إلىالرهبنة هو الاضطهادات المتتالية التى دفعت المسيحيين الأوئل إلىالصحراء والتى اتخذها البعض موطنا ، هذا علاوة على تأثير ونفوذ كنيسة الإسكندرية على الرعايا المسيحيين والثورة على الجسد والعزلة عن العالم [٤] .

واستمر الآنبا أنطونيوس مع مجموعتـه مختـرقين الصحراء الشرقية متجهين شرقا فى اتجاة البحر الأحمر وأخيرا حطوا رحالهم فى مكان قريـب مـن البحـر علـى مسيرة يـوم مـن شـاطئه .... وفـى الغـالب الأعـم كـانت هناك مجموعات سبقت الأنبا أنطونيوس فى الذهاب إلـى هذه المنطقة ... وأنه رحل إلى هذه المنطقة فـى تـاريخ لاحق لهذه المجموعـات ولكنـه هـو الـذى قـاد مجموعتـه الأخيرة والتى قامت ببناء هذا الدير وحفرت هـذه الآبـار ، لعلها أعادات حفر وتطهير وتنظيف بئر مهجورة كانت فى هذه البقعـة الهادئـة المباركـة ، وقـاموا بصناعـة كـل مايحتاجونـة ، وأيضـا تجهيز الأرض وزراعتهـا ، بمـا يكفل لهم حيـاة التقشـف أو الحـد الأدنـى للكفـاف ، ومـن الطبيعى أنه كان هناك نوع من الاتصال الحذر فيما بيـن هـذه الأديـرة ، وبيـن الإسـكندرية ، أمـا الاتصـال بيـن الأديرة بعضها وبعـض فيبـدو أنـه كـان نـادرا أومنقطعـا لبعد المسافات بينها .

وفـى عصـر الإمبراطور دقلديـانوس وهـو عصـر قمة الاضطهاد والتعذيب كما ذكرنا من قبل حيث وصـل عـدد القتلـى مـن الشـهداء إلـى أكـثر مـن ٨٠٠,٠٠٠ نسـمة [٥] ، وحرصـا علـى مضاعفـة التعذيـب والتقتيـل والذبـح لكافـة المسـيحيين ، كـان القيصـر جـالريوس Galeriusنـائب دقلديـانوس فـى الشـرق معارضـا عنيـدا للمسيحية ، وبذل جهدا لدفـع الإمبـراطور إلـى اضطهـاد المسيحيين واسـتصدار أربعـة قـرارات فيمـا بيـن عـامى

٣٠٢م ، ٣٠٥ ميلادية للحث على سياسة الاضطهاد بما فيها حرق الأناجيل والكتب الدينية واعتبارهم خارجين على القانون ، وقتل كل الرجال والنساء والأطفال الذين رفضوا تقديم القرابين للآلهة الوثنية ، وكان وقع الاضطهاد شديدا على المصرين لدرجة أنهم اتخذوا من عام ٢٨٤ م وهو تاريخ تولية دقلديانوس عرش الإمبراطورية ، بداية لتقويم القبطى كما أشرنا من قبل ... وكان انتصار المسيحية هو فى الحقيقة تاريخ ظهور الدولة البيزنطية فى عهد قسطنطين الكبير ، ففى عام ٣٠٥ ميلادية مرض دقلديانوس واعتزل وتولى مكانه جالريوس وفى عام ٣١١ مرض واعتقد أن سبب علتة هو انتقام إله المسيحيين منه ، لهذا أصدر فجأة مرسوما يمنع اضطهاد المسيحيين ، وعفا عن المسجونين منهم وأطلق سراحهم.

وأعلن حقهم فى الوجود ، ويبدو أن هذا المرسوم لم ينفذ بصورة فعلية اذ أن الجنود والضباط والمرشدين ومن خلفهم اليهود لم يكن من السهل عليهم الاقلاع عن التعذيب والاضطهاد ، الذى أصبح جزءا لايتجزأ من عملهم ، فهو روتين يومى مستمر، حينذاك كانت الأخبار تصل إلى الأديرة وأماكن اختفاء هؤلاء المسيحيين الأوائل – معلنة انتهاء الاضطهاد ، وأحيانا تعلن أن موجة الاعتقالات والتعذيب بدأت مرة أخرى . وعندما كان معه هؤلاء الرهبان والنساك والمتعبدون ، يترددون على القرى والمدن القريبة ، تاركين أديرتهم وقلاياتهم ،

ليحضروا الحد الأدنى لما يحتاجونة ليستطيعوا مواصلة الحياة لحد الكفاف ، كانوا يسترقون السمع لما يدور ويعرفون آخر الأخبار عن إخوانهم المسيحيين وما يلاقونة من تعذيب واعتقالات وقهر ، وفى رحلة من رحلات أبى الرهبان الأنبا أنطونيوس للإسكندرية مرورا ببابليون كان متتبعا لمجموعة من المسيحيين المساقيين إلى حتفهم بالوسائل المختلفة إن كان بالمقصلة أو بإطلاق الحيونات الجائعة المفترسة عليهم أو القتل بالحرق البطئ وعلى مراحل أو بالزيت المغلى ويسكب فى أفواههم أو فى آذانهم ، وفى أماكن حساسة فى أجسادهم ، هكذا كان يتحمل هؤلاء المسيحيون المساكين تلك الصور الشاذة والجامحة فى التعذيب... كل هذا والأنبا أنطونيوس تواق للاستشهاد معهم ، ولكنة كان فى نفس الوقت حريصا على بث الهمة والشجاعة فى نفوس هؤلاء الإخوة فى الايمان ... وكان يتتبع مسيرة هؤلاء وهم يرتلون المزامير وأيات الإنجيل ، يرسمون علامة الصليب على صدورهم [٦] ، فالصليب عنوان هذا الدين الجديد ورمزه وعنوان التلمذة المسيحية الحقيقية . وسر قوتها وجوهر مجدها ... هكذا صار الصليب شرطا أساسيا للتلمذة للرب وفى هذا يقول انجيل متى الاصحاح ١٦ الآية ٢٤ : إن أراد أحد أن يأتى ورائى ، فلينكر نفسه ويحمل صليبه ويتبعنى وهكذا كان الأنبا أنطونيوس يتبع هذه الجحافل من الشهداء الأطهار يوما بيوم وساعة بساعة ، إلى أن جاء يوم المحاكمة الصورية واستمر فى

بث الشجاعة فى نفوسهم ، يشد أزرهم ، ويقبلهم وهم يستقبلون الموت ، يا له من مشهد رهيب مفعم بالأسى والحزن ، فهو يعانق إخوانه وأبناءه وهم فى طريقهم للموت .. كل هذا والأنبا أنطونيوس يبدو فى قاعة المحاكمة فى أحسن ما يكون ، رابط الجأش قوى العزيمة ، وهكذا أمضى الأنبا أنطونيوس حياته مستغرقا فى صلاتة الدائمة لتكتب له الشهادة ، فيما بين الدير فى جوف الصحراء الشرقية ومدينة الاسكندرية حيث المحكمة الكبرى حيث محاكمة هؤلاء الشهداء الأوائل العظماء ، ومن أعظمهم المغيوط الراضى بقضاء الله وقدره الاسقف بطرس الاول . وأخيرا انتهت حياة الأنبا أنطونيوس كرأس لكنيسة القبطية الأرثوذكسية بالإسكندرية البابا السابع عشر فى ٢٥ نوفبر عام ٣١١م وفى الدير الذى أقامه فى الزعفرانة فى صحراء الشرقية تتلمذ العديد من المسيحيين وعاش العديد من الرهبان وأنفقوا حياتهم فى الدرس والتحصيل وفى العمل الشاق والتقشف والتبتل والعبادة ، وتخرج من هذا الدير وهذا الصرح الكنسى إثنا عشر قطبا تولوا رئاسة الكنيسة المصرية بالاسكندرية كما نوهنا عن ذلك فى الصفحات السابقة .

ومن الرهبان العظام غير الأنبا بولا الذى ورد ذكره من قبل الباباوات التالية أسماءهم : (٧)

الاول : الأنبا أثناسيوس الرسولى وهو البابا العشرون تتلمذ على يد القديس الأنبا أنطونيوس.

الثانى : الأنبا أثناسيوس الثانى وهو البابا الثامن والعشرون .
الثالث : الأنبا متاوس الأول وهو البابا السابع والثمانون الملقب بمتى المسكين.
الرابع : الأنبا غبريال السادس وهو البابا الواحد والتسعون.
الخامس : الأنبا يؤنس الخامس عشر وهو البابا ٩٩.
السادس: الأنبا مرقس السادس وهو البابا ١٠٦.
السابع : الأنبا يؤنس السادس عشر وهو البابا ١٠٣.
الثامن : الأنبا يؤنس الثامن عشر وهو البابا ١٠٧.
التاسع : الأنبا مرقس الثامن وهو البابا الثامن بعد المائة .
العاشر : الأنبا بطرس السابع وهو البابا التاسع بعد المائة .
الحادى عشر : الأنبا كيرلس الرابع وهو البابا ١١٠.
الثانى عشر : الأنبا يوساب الثانى وهو البابا ١١٥.

ومن دير الأنبا بولا ذلك الصرح الذى يقع على مقربة من دير الأنبا أنطونيوس اعتلى كرسى البابوية ثلاث بابوات هم :

الاول : الأنبا بطرس السادس وهو البابا الرابع بعد المائة.
الثانى : الأنبا يؤنس السابع عشر وهو البابا الخامس بعد المائة.

الثـالث : الأنبـا مرقـس السـابع وهـو البابـا السـادس بعد المائة .

ويعتقد أن دير الأنبا بولا هو ثانى دير فـى العـالم بعد دير الأنبا أنطونيوس وقد أنشاه الأنبا بولا وهو تلميـذ الأنبا أنطونيوس – ولذلك كان يسمى أول النساك .

ومن الرهبان العظام أيضا أبو مقار الكبير وهـو الذى شيد الدير الموجـود علـى حافـة الدلتـا فـى المنطقـة المعروفة حاليا بدير الأنبا مكارى وفى هذه المنطقة فيمـا بين وادى النطرون جنوبا حتى غرب الإسكندرية شـمالا كانت توجد الأديرة البدائية التى تم تهديمها كلها فى عهـد الاحتلال الفارسى(٨) مـع مطلـع القـرن السـابع الميـلادى كما سيأتى ذكره فيما بعد ومـن هـذا الدير وحـده وصـل إلى كرسى البابوية خمسة وعشرون بابا وهم كما يلى:(٩)

الأول : الأنبا كيرلس الأول وهو البابا الرابع والعشـرون الملقب بعمود الدين .

الثـانى : الأنبـا يؤنـس الأول وهـو البابـا التاسـع والعشرون .

الثـالث : الأنبـا إيسـاك وهـو البابـا الواحـد والأربعـون (إسحق) وكان كاتبا مبدعا .

الرابع : الأنبا قزما الأول وهو البابـا الرابـع والأربعـون لم يستمر على الكرسى طويل .

الخـامس : الأنبـا ميخـائيل الأول وهـو البابـا السـادس والأربعون .

السادس : الأنبا مينا الأول وهو البابا السابع والأربعون.

السابع : الأنبا يؤنس الرابع وهو البابا الثامن والاربعون أول من انتخب بالقرعة .

الثامن : الأنبا ياكوبس وهو البابا الخمسون (إعادة تعمير أديرة وادى النطرون) .

التاسع : الأنبا يوساب الأول وهو البابا الثانى والخمسون.

العاشر : الأنبا قزما الثانى وهو البابا الرابع والخمسون وتعاونه معه الخليفة المتوكل [١٠] .

الحادى عشر : الأنبا شنودة الأول البابا الخامس والخمسون وتعاون مع الولاة فى التنمية العمرانية وإنشاء قنوات للمياه العذبة تحت مدينة الاسكندرية .

الثانى عشر : الأنبا ميخائيل الثالث وهو البابا السادس والخمسون.

الثالث عشر : الأنبا غبريال الأول وهو البابا السابع والخمسون ، وقد تمت سرقة جسد مار مرقس فى رسالته .

الرابع عشر :.الأنبا قزما الثالث وهو البابا الثانى والخمسون وقد تمت فى عهده أحداث من التدمير والتقتيل.

الخامس عشر : الأنبا مكارى الأول وهو البابا التاسع والخمسون ، وكان فنانا .. وحكيما.

السادس عشر : الأنبا مينا الثانى وهو البابا الواحد والستون ، وكان شجاع وقوى الإيمان ومستقيم الخلق.

السابع عشر : الأنبا (فيلوثيوس) وهو البابا الثالث والستون ، وفى عهده تمت إعادة الصلات بين كنيسة مصر والحبشة.

الثامن عشر : الأنبا شنودة الثانى وهو البابا الخامس والستون ، وفى عهده كان الظلم يعم البلاد ولاقى المسيحيين مثل باقى الأمة مسلمين ومسيحيين الهوان والظلم والعذاب .

التاسع عشر : الأنبا ميخائيل الرابع (١٠٩٤) .

العشرون : الأنبا كيرلس الثانى وهو البابا السابع والستون القرن الحادى عشر ، وكان مشروعا حكيما .

الواحد والعشرون : الأنبا مكارى الثانى وهو البابا التاسع والستون.

الثانى والعشرون : الأنبا ميخائيل الخامس وهو البابا الواحد والسبعون، وكان متواضعا وعفيفا ومطيعا.

الثالث والعشرون : الأنبا مرقس الخامس وهو البابا الثامن والتسعون وكان صبورا وورعا ومحبا للخير.

الرابع والعشرون : الأنبا متاوس الثالث وهو البابا المائة
وقد اتخذ من الأنبا مكارى الكبير قدوة ونجما هاديا.

الخامس والعشرون : الأنبا ديمتريوس الثانى وهو البابا الحادى عشر بعد المائة ، قد اعتلى الكرسى فى عام ١٨٧٠ القرن التاسع عشر وكان سياسيا فقد عرف كيف يكسب رضى كل من سلطان تركيا والخديوى إسماعيل.

فخلال عشرين قرنا من الزمان ، ومع استقرار كلمة الله فى صدور المصريين ومع تولى جلوس الباباوات على عرش بابوية الكنيسة الأرثوذكسية المصرية (بطريركية الكرازة المرقسية بالإسكندرية) .

والذى وصل عددهم حتى نهاية القرن العشرين سبعة عشر بابا بعد المائة بجلوس البابا شنودة الثالث فى عام ١٩٧٢ والذى قدم من دير السيدة العذراء المعروف بالسريان [١١] ، وفى هذا الصدد نود أن نشير إلىأن معظم باباوات الكنيسة المرقسية . تخرجوا من مدرسة الرهبنة والتبتل والتقشف ، فقد وصل عددهم إلى حوالى٧٠ بابا جاءوا من عدة أديرة تطرقنا إلى بعضها فى الأوراق السابقة والتى يصل عددها حاليا مع نهاية القرن العشرين إلى قرابة المائة دير على امتداد خريطة مصر ، منها الصغير ومنها الكبير . وهى الأديرة التى بقيت مما هدم على أيدى البيزنطيين وهى حالات قليلة ، أو مئات الكنائس وآلاف الأديرة والقلايات فقد تم هدمها

تماما وقتل من فيها من رهبان وقساوسة ونساك على أيدى الاحتلال الفارسى.

والشئ بالشئ يذكر ، فان مع عدم استقرار الحكم وجنوح العدل وتفشى الظلم واضطراب الأمن ، والذى معه تكون أيضا السيطرة على الصحراء منعدمة ، فيكثر قطاع الطرق وتزداد اعتداءات البدو على القوافل التجارية ويصل الضياع الأمنى وعدم الاستقرار إلى حد الاعتداء على قوافل التجارة والحج .

وفى هذه الفترات تهددت الأديرة من هؤلاء البدو وقطاع الطرق ، وليست الأديرة فقط التى كانت مهددة ولكن أيضا سكان القرى والواحات واستمر الرهبان يعانون الظلم أحيانا وينعمون بالاطمئنان والسكينة فترات الحكم العادل شأنهم فى ذلك شأن كل الشعب المصرى المسيحيين والمسلمين واليهود على مدى العصور وعلى حد سواء . ترجع عزيزى القارئ مرة أخرى إلى صحراوات مصر فتجد فى سيناء ثلاثة أديرة أهمها دير سانت كاترين ومرتبط به دير وادى فيران الدير الصغير وكذلك دير الطور شمال مدينة الطور المطل على خليج السويس المجاور لحمام موسى.

وفى منطقة الصحراء الغربية توجد عدة أديرة تم إنشاؤها فى فترات متفاوتة خلال الاضطهاد البيزنطى الكبير فيما بين نهاية القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ، وهى الأديرة التى لم يسلم معظمها فيما بعد من الاعتداء الفارسى والتى أعيد ترميمها وبناؤها من جديد بعد

تحرير مصر من الفرس والبيزنطيين ومن هذه الأديرة دير مريوط غرب مدينة الإسكندرية . ومن هذا الدير اعتلى الكرسى البابوى أربع باباوات هم :

أولا : الأنبا دميانوس وهو البابا الخامس والثلاثون وهو البابا الذى بذل مجهودا يفوق طاقة البشر من أجل أن يوضح العقيدة الأرثوذكسية .

ثانيا : الأنبا بنيامين وهو البابا الثامن والثلاثون وهو البابا الذى هجر الدير وهرب إلى الفلاة مع بداية الاحتلال البيزنطى وحكم هرقل ، واستمر هروبه خلال فترة الاحتلال إلى أن قدم إلىالإسكندرية وقابل عمرو بن العاص بعد رجوعه من مخبئه وبعد أن أطمأن الحكم واستقر فى مصر على إثر تحرير مصر من الاحتلال البيزنطى الثانى ،وهذا ما سوف نطالعه معا فى الفصول التالية :[١٢]

ثالثا : الأنبا ثيودوروس وهو البابا الخامس والأربعون والذى سعا سعيا دؤوبا من أجل الكمال المسيحى.

رابعا : الأنبا ميخائيل الثانى وهو البابا الثالث والخمسون والذى لم يستمر على كرسى البابوية إلا سنوات قليلة.

وهذا الدير تم تخريبه تماما على أيدى القوات الفارسية المحتله ضمن ماهدم من أديرة وهدمتة وتركتة أطلالا متناثرة ، أحجارا وأعمدة مهشمة ومتناثرة على امتداد صحراء الإسكندرية ، وذلك فى أوائل القرن السابع والذى على إثره كانت هجره كل الرهبان

والنساك ، ولكن بعد ثلاثة عشر عاما بعد تحرير مصر نهائيا من الفرس والبيزنطيين رفرف السلام على كل أرجاء مصر ، وتم بناء بعض الكنائس والأديرة التى أمكن إعادة بنائها أو ترميمها ومن الأديرة التى تخرج منها باباوات عظام دير الزجاج أيضا فى الصحراء غرب الإسكندرية فقد اعتلى عرش البابابية من هذا الدير ثلاثة باباوات وهم :

الأول : الأنبا بطرس الرابع البابا الرابع والثلاثون والذى لاقى العذاب على أيدى الاحتلال البيزنطى (١٣) .

الثانى : الأنبا سيميون الأول وهو البابا الثانى والأربعون ، وكان متواضعا(١٤) .

الثالث : الأنبا الكسدروس وهو البابا الثالث والأربعون وكان يمتاز بالحكمة والنزاهة(١٥) .

وهذا الدير مثله مثل دير مريوط فقد تم تخريبه تماما ، بمعرفة قوات الاحتلال الفارسى ، والتى استمر مهدما إلىأن تحررت مصر ، وحكمها عمرو بن العاص بعدله وحكمته المشهودة ، وإعادة بناء معظم الكنائس والأديرة التى أمكن جمع أحجارها وأعمدتها المتبقية المتناثرة على امتداد الصحراء ، ومن الأديرة المشهورة التى زودت الفكر المسيحى بالقدوة الحسنة ، دير السيدة العذراء المعروف بالدير المحرق على ضفاف الوادى فى صعيد مصر ، وتخرج من هذا الدير ثلاثة باباوات هم :

الأول : الأنبا غبريال الرابع وهو البابا السادس والثمانون وكان عابدا مهيبا .

الثانى : الأنبا متاوس الثانى وهو البابا التسعون وفى عصر كانت بداية الهدوء .

الثالث : الأنبا يؤنس الثانى عشر وهو البابوية الثالث والتسعون ولم يستمر على عرش البابا كثيرا....

ومن الأديرة الشهيرة الموجودة فى صعيد مصر ، وتزود الكنيسة بالقدوة الحسنة دير الأنبا بيشوى وأنشأ هذا الدير الأنبا بيشوى وكان يلقب بالرجل الكامل ، ومن هذا الدير تخرج اثنان جلسا على كرسى البابوية هم :

الأول : الأنبا غبريال الثانى ، وهو البابا السابع والتسعون

الثانى : الأنبا مكارى الثالث وهو البابا الرابع عشر بعد المائة .

دير السيدة العذراء المعروف باليرموس.

وتقلد من رهبان هذا الدير ستة باباوات هم :

الأول : الأنبا فريستو دوللوس وهو البابا السادس والستون وهو أول من نقل كرسى البابوية إلى القاهرة .

الثانى : الأنبا يؤنس الرابع عشر وهو البابا السادس والتسعون .

الثالث : الأنبا متاوس الرابع وهو الثانى بعد المائة.

الرابع : الأنبا كيرلس الخامس وهو البابا الثانى عشر بعد المائة
(عصر مطلع القرن العشرين)

الخامس : الأنبا يؤنس التاسع عشر وهو البابا الثالث عشر بعد المائة

السادس : الأنبا كيرلس السادس وهو البابا السادس عشر بعد المائة .

دير السيدة العذراء المعروف بالسريان .... ومن المتعارف أن الذى شيد هذا الدير الأنبا يؤنس وكان الأنبا يؤنس الخامس وهو البابا الثانى والسبعون ومن هذا الدير تخرج لرئاسة الكنيسة الارثوذكسية المصرية .

أولا: الأنبا غبريال السابع وهو البابا الخامس والتسعون وقد قام هذا البابا بتعمير دير الأنبا أنطونيوس ودير الأنبا بولا.

ثانيا: الأنبا شنودة الثالث وهو البابا السابع عشر بعد المائة .

ومن الأديرة المحيطة بالقاهرة وأشهرها دير شهران وهو بمنطقة المعادى ومن هذا الدير تخرج ثلاثة باباوات هم :

الأول : الأنبا يؤنس الثامن وهو البابا الثمانون .

الثانى : الأنبا بطرس الخامس وهو البابا الثالث والثمانون.

الثالث : الأنبا مرقس الرابع ، وهو البابا الرابع والثمانون

وعلى امتداد الوادى فى صعيد مصر عشرات الأديرة الشهيرة منها :

دير أبو فانا : من هذا الدير تخرج الأنبا ميؤدوسيوس الثانى وهو البابا التاسع والسبعون.

دير ماربقطر : فى منطقة الفيوم وتخرج من هذا الدير الأنبا كيرلس الثالث وهو البابا الخامس والسبعون وهو أول من أنشأ مطرانية بالقدس .

دير أنبا صمويل القلمونى : وتخرج من هذا الدير الأنبا غبريال الخامس وهو البابا الثانى والثمانون.

دير انبا يؤنس كامى : ومن هذا الدير اعتلى كرسى الكنيسة المصرية . الأنبا يؤنس الخامس وهو البابا الثانى والسبعون .... إلخ.

وهكذا استمرت رسالة الأديرة فى تقديم العلم وترسيخ قواعد السلام وتدعيم الوحدة الوطنية .

هوامش الفصل الثالث

١- القمص شنودة السرياني – الاستشهاد في المسيحية – مطبعة العالم العربي – طبعة فبراير ١٩٦٩ – صـ ٢٢ وما بعدها .
٢-القس منسى يوحنا – تاريخ الكنيسة القبطية – مكتبة المحبة – صـ ٢٠٩.
٣- القس منسى متى – تاريخ الكنيسة القبطية – مكتبة المحبة – صـ ١٨١ وما بعدها
٤- المرجع السابق صـ ٧١ وما بعدها .
٥- صبرى معوض صـ ٩٨.
٦- حياة الأنبا أنطونيوس – ترجمة القص مرقص مراد – صـ ٧١١ وما بعدها .
٧- إيريس حبيب المصرى – قصر الكنيسة المصرية – مكتبة المحبة – صـ ١٦٢ وما بعدها .
٨- القس منسى يوحنا – تاريخ الكنيسة القبطية – مكتبة المحبة صـ ٣٠٣ ، صـ ٣٠٤ .
٩- إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة المصرية – مكتبة المحبة – صـ ١٦٢ وما بعدها .
١٠- إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة المصرية – الكتاب الخامس – مكتبة المحبة – صـ ١٦١ وما بعدها
١١- إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة المصرية – الكتاب الخامس – مكتبة المحبة – صـ ١٦٤ .
١٢- القس منسى يوحنا – تاريخ الكنيسة القبطية – مكتبة المحبة – صـ ٢٩٠ .
١٣- إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة المصرية – مكتبة المحبة – صـ ١٦٥ .
١٤- المصدر السابق صـ ١٦٥ .
١٥- إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة المصرية – مكتبة المحبة – صـ ١٦٥

الفصل الرابع

الاضطهاد البيزنطى للمصريين
(٣١١)

يمنع اضطهاد المسيحيين ويعفى كافة المسيحيين ، ويكفل لهم الحق فى الحياة والوجود والتسامح وممارسة شعائرهم المسيحية

مرسوم ميلان
مارس عام ٣١٣

الاضطهاد البيزنطى للمصريين
(٣١١)

بدأ العصر البيزنطى مع مطلع القرن الرابع الميلادى ، وكان هذا فى نهاية حكم دقلديانوس .. واسمح لى عزيزى القارئ أن نرجع قليلا إلىالوراء لكى نستطلع الأحوال قبل تأسيس الإمبراطورية البيزنطية فمع بداية حكم دقلديانوس فى أوآخر القرن الثالث الميلادى وبالتحديد فى عام ٢٨٤ م عندما تم تنصيب دقلديانوس إمبراطورا – حيث وصل التعذيب والقتل إلى أقصى مداه ، على يد نائبه فى الشرق جالريوس ، حتى أن المصريين اعتبرو يوم توليه الحكم – امبراطورا – بداية التقويم القبطى [١] ، وعند مطلع

القرن الرابع فيما بين عام ٣٠٢ ، ٣٠٥ اصدر دقلديانوس ونائبه جالريوس أربعة مراسيم تحث على اضطهاد المسيحيين ، بما فى ذلك حرق الأناجيل والكتب الدينية ، ومنع المسيحيين من التجمع وتحريم إقامة الطقوس والشعائر الدينية واعتبار من يقوم بالشعائر ويقيم الصلاة خارجا على القانون وتم قتل كل الرجال والنساء والشيوخ والأطفال الذين يرفضون تقديم القرابين للأوثان الآلهة ، وبقدر ما شمل هذا الاضطهاد الإمبراطورية كلها غربها وشرقها ، إلا أن نصيب مصر كان النصيب الأكبر - وليسمح لى عزيزى القارئ أن نلقى الضوء على الإمبراطور دقلديانوس الذى كان معروفا بالحكمة وحسن الإدارة - إذ أنه تدرج فى المناصب الادارية من القاعدة حتى القمة وكان شاهدا على عصره فكان أهلا ليكون إمبراطورا مصلحا ، وأدرك أن هذه الإمبراطورية العظيمة المثقله بالمشاكل والهموم لا يمكن إداراتها بطريقة تقليدية ، فبدأ فى وضع نظام غير تقليدى فى حكم هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف (٢) .

وتنطلق بداية هذا العصر عندما بدأ دقلديانوس إصلاحاتة الإدارية عام ٢٨٦ م بعد توليه الحكم بعامين بفكرة كانت جديدة تماما فقد قسم مسئولية إدارة الإمبراطورية فى يد إمبراطورين ، يلقب كل منهما بلقب أغسطس ، يحكم احدهما الجناح الشرقى من الإمبراطورية ، ويقوم الاخر بحكم الجناح الغربى منها

.وكانت هذه الفكرة الجديدة تحمل فى طياتها بذور انقسامها فيما بعد ... وفى عام ٢٩٣ م قرر دقلديانوس أن يعين مساعدا لكل من الإمبراطوريتين أو نائبا اتخذ لقب قيصر يحل محل الأغسطس بعد وفاته أو استعفائه (٣) .

واستقر دقلديانوس فى الولايات الآسيوية ، ومصر وكانت نيقوسيا مركزا لها ، وعين رفيق سلاح قديم له اسمه ماكسيميان (MAXIMIAN) أغسطس على الجناح الغربى ، يحكم إيطاليا وشمال أفريقيا وأسبانيا ومقره مدينة ميلان ، أما القيصران المساعدان للإمبراطورين فهما جاليريوس (GALERIUS) الذى حكم شبه جزيرة البلقان وولايات الدانوب المجاورة ومركزه ميرميوم وهو قيصر لدقلديانوس ، وقسطنطيوس قلورس (Constantius Clorus) الذى حكم فرنسا وبريطانيا ومركزه مدينة تريفيس يورك ، وكان قيصرا لماكسيميان . ويلاحظ أن هذا التقسيم وتحديد المسئوليات هو لمنع قواد الجيش الامبراطورى من تعقب الأباطرة وعزلهم . واعتبر هؤلاء للإمبراطورية الرومانية الواحدة ، وكل المراسيم والأوامر والقرارات الإمبراطورية تصدر بأسماء الأربعة ، وتجدر الإشارة إلى ان الإمبراطورية أدركت ضمنيا – وقتذاك – بوادر الاختلاف بين الشرق اليونانى الإغريقى والغرب اللاتينى – ونجح هذا النظام إلىحد ما ... مما جعلها تصمد أمام العدوان الخارجى مؤقتا (٤) .

ومـع وصـول الامـبراطور قسـطنطين الكبـير وانفـرادة بحكم الامبراطوريـة الرومانيـة ، قـام باختيـار مكان مستوطنة علـى شـاطئ البوسـفور مركـزا لتأسـيس عاصمة جديدة ، وكان هذا النظام يحـرم حكـام الولايـات مـن السـلطات العسكرية ومـن قيـادة الجيـوش - وجعـل لقيـادة الجيـش فرسـانا ذوى مؤهـلات عسـكرية خاصـة وكـانت مصـر مـن الولايـات الرومانيـة والتـى كـانت بالدرجة الاولى مزرعة للقمح والكروم . ، وكانت هذه الإجراءات المعقدة ، تستلزم أعدادا كبيرة من الموظفين ذوى المرتبات الكبيرة ، مما أرهق الدولة اقتصاديا وهذا الارهاق الاقتصادى تحملتة مصر وحدها - ومـن ناحيـة اخـرى كـانت الاجـراءات تحمـل فـى طياتهـا عوامـل فشلها (٥) .

فزاد التضخم الاقتصادى ، وزادت نفقات المعيشة بزيـادة الأسـعار ... ولـم تفلـح الحكومـة فـى وضـع حـد للغـلاء ... وزاد غـش العمـلات الذهبيـة فـى محاولـة للقضـاء على الغلاء ... ولم يستطيع دقلديانوس الذى كان حتى هذا الحين وثنيا - أن يحـل مشـكلة قصـور الوثنيـة فى بلوغ الأستقرار الاجتماعى والنفسى لجماهير شـعوب الإمبراطوريـة الواسـعة ، فمـا زالـت الشـعوب العديـدة المختلفة - ولمصر طبعا - النصيب الأوفر - تعانى من الاضطهـاد السياسـى والاقتصـادى مـن الرومـان ، فالمسيحية كانت قد تغلغلت فى نفوس العديد مـن شـعوب الإمبراطورية وكان الاعتقاد حينذاك سائدا بأن المسـيحية

تهدد أمن الإمبراطورية ، وأن انقاذ الإمبراطورية لن يتحقق إلا عن طريق اتباع الطقوس الوثنية الرومانية ، فكان هذا الاعتقاد يدفع إلى مزيد من الاضطهاد في محاولة لاستئصال المسيحية والقضاء عليها وقتل كل اتباعها ... في هذا كانت مصر وشعبها المتدين أكثر شعوب الإمبراطورية تمسكا بالدين الجديد ... وكان القيصر جالريوس نائب دقلديانوس في الشرق معارضا شرسا للمسيحية ومن ألد أعدائها ، ونجح في دفع دقلديانوس إلىاضطهاد المسيحيين الذين انتشروا انتشارا يلفت النظر ويسترعى الانتباه وهذا الاضطهاد – في حد ذاتة – كان انتصارا للمسيحية ، كما كان يعتبر تاريخ ظهور الدولة البيزنطية [٦] .

ففي عام ٣٠٥ م مرض دقلديانوس وتقدمت به السن ، فتنازل هو ومكسيميان عن لقبيهما (الإمبراطور) ، واعتزلا العمل السياسى ، واصبح جالريوس حاكما للقسم الشرقى للإمبراطورية ، خلفا لدقلديانوس ، في حين أصبح قسطنطيوس (والد قسطنطين) حاكما للقسم الغربى خلفا لماكسميان ، وكان قسطنطيوس قد عرف بمواقفه السليمة تجاة معتنقي المسيحية . وتوفى فجأة عام ٣٠٦ م وخلفه ابنه قسطنطين وفى عام ٣١١ مرض جالريوس مرضا عضالا .... اعتقد أن سببه انتقام إله المسيحيين منه ، لهذا أصدر فجأة مرسوما يمنع فيه اضطهاد المسيحيين في اليوم العاشر من بؤونة سنة ٣١٢ في جميع البلاد الخاضعة ، وعفا بموجبه عن

المسيحيين وأعلن حقهم فى الوجود ، بل شمل الفرح كل أنحاء الإمبراطورية بعد الاضطهاد الذى اجتاحهم فى عهد دقلديانوس وان كان هذا المرسوم لم ينفذ بصورة فعليه حيث استمر الاضطهاد ، وبصور مختلفة ، ولم يكن الاضطهاد إلا زيادة فى إلقاء الزيت على النار ، إلىأن اجتمع بعد ذلك قسطنطين وليكينيوس عند مدينة ميلان فى مارس عام ٣١٣ م وكما أشرنا سابقا وأعلنا التسامح الدينى للمسيحيين ، وأصدرا وثيقة سميت خطأ باسم مرسوم ميلان ، ذلك لأن النص الأصلى للوثيقة لم يعثر عليه والحقيقة أن هذه الوثيقة لم تكن مرسوما ، ولكنها كانت رسالة موجهة إلى أحد حكام الولايات فى آسيا الصغرى وهو (حاكم نيوقومديا) وكانت تحتوى على توجيهه بحسن معاملة المسيحيين ، وتوضح سياسة التسامح التى اتبعتها الدولة تجاههم.

والحقيقة أن هذه الرسالة الصادرة عن قسطنطين وليكينوس عبارة عن تأكيد لما ورد فى مرسوم جالريوس الصادر فى عام ٣١١ ، ويعتبر هذا المرسوم بداية عهد الاضطهاد البيزنطى للمصريين فأن العلاقة بين المصريين والبيزنطيين كانت علاقة محتل لشعب مستعمر .

وأعطته هذه الرسالة المسيحيين وغيرهم من معتنقى الديانات الأخرى ، كامل الحرية فى اتباع العقيدة التى يختارونها ، وهكذا أصبحت الديانية المسيحية ديانة معترفا بها كغيرها من الديانات فى الإمبراطورية ،

وحثت هذه الرسالة حكام الولايات على عدم اضطهاد المسيحيين ، وأن ترد إليهم أماكن تجمعهم التى اعتادوا العبادة فيها والتى صودرت ، واحتوت الرسالة أيضا على وعد بإعادة ممتلكاتهم المصادرة ودفع التعويضات اللازمة من الخزانة الإمبراطورية للذين اشتروها.

تجدر الإشارة إلىأن انتصار المسيحية تحقق فى عصر قسطنطين الكبير – ولم يكن فى ذلك اعتراف بحقها فى الوجود فقط ، بل فى وضعها تحت حماية الدولة ، وهذا فى حد ذاتة ذو مغزى واضح فى تاريخ المسيحية الأولى فالمسيحية ظهرت قبل قسطنطين بحوالى ثلاثة قرون ، ولم يكن حتى عصر قسطنطين قد اعتنقها إلا أقلية صغيرة فى عالم البحر الأبيض لهذا كان انتصار المسيحية بالذات على ديانات شرقية أخرى ، يرجع بالدرجة الأولى إلى تحمس الدولة لها واحتضانها ومثلها فى ذلك مثل الديانة الزرادشتية ، عندما وقف حكام فارس الساسانيون إلى جانبها واتخذوها دين الدولة . مما أدى إلى انتشارها .

واعتنق قسطنطين المسيحية فى عام ٣١٢ م وإن كان المؤرخون اختلفوا فى كيفية اقتناعه واعتناقه المسيحية ، وأسس فى عام ٣٢٤ م مدينة القسطنطينية واعتبرها عاصمة جديدة للإمبراطورية فى الشرق ، وحين اكتمل فى ست سنوات بناؤها عام ٣٣٠م كعاصمة للدولة المسيحية باسم روما الجديدة منافسة لروما القديمة

التـي بـاتت عاصمـة الدولـة الإمبراطوريـة الرومانيـة الوثنية.

وهكذا يرتبط بمرسوم ميلان أمران هامان :[٧]

الأول : بداية مظاهر انفصال الدولة الشرقية عن الدولـه الغربية .

الثاني : اعتناق الامبراطور قسطنطين للديانة المسيحية.

وهذان الأمران انعكسا على العالم ككل من ناحيـة بوقع معين ، وعلى مصر من ناحية أخرى بوقـع أشـد ، وهـذا مـا يهمنـا فـى هـذا الصدد ، ومـا سـوف نحـاول توضيحه فى الفصول التاليـة إذ أن المصريين قـد لاقـوا من التعذيب ما يزيد وما يخالف كل أرجاء العالم وقتذاك ، فقد كـانو يتحملـون النصيب الأكبر عن سـائر أنحـاء وشعوب الإمبراطورية الرومانية الشرقية – فمع اعتـلاء قسطنطين عـرش الإمبراطوريـة البيزنطية فوجـئ بـأن المسيحية لهـا روافـد عديدة تمـلأ الساحة علـى اتسـاع الإمبراطوريـة مـن أقصاهـا إلىأقصاهـا – وكـانت الاختلافات بين هذه المذاهب وتلك الروافد محيرة للغايـة – وكانت مدينة الإسـكندرية بـؤرة هـذه السـاحة ومركـز هذه الاختلافات ، فقد كانت مدينة الاسـكندرية وجامعتها الشهيرة هى مركز العلم والفلسفة – فهى الجامعة الأولـى فى العـالم – تقوم بواجبها فى التعليم والتثقيف والتنوير ، يؤمها الطلاب من كل أرجاء المعمورة المسكونة – هـذا من ناحية ، ومن ناحية أخـرى – كـان المنـاخ السياسـى وقتـذاك عفنـا مليئـا بـالمؤامرات مفعمـا بالدسـائس [٨] ،

فاليهود من جهة يحسب حسابهم حيث هم يتقربون من الإمبراطور بشتى الطرق – وهذا شأنهم – ضمانا لمصلحتهم ، ومن جانب آخر رجال البلاط الإمبراطورى ، لهم نفوذهم بجانب قواد الجيش ، وكبار رجال الدولة ، والاختلاف لم يكن مجرد اختلاف مذهبى عقائدى فقط ، ولكنة وصل إلىحد العداء ، ويصل أحيانا إلىملاحقة أنصار المذاهب المختلفة بعضهم البعض وتعذيب بعضهم البعض .

وهكذا كان لزاما على الامبراطور أن يسعى إلىلم الشمل ورأب الصدع وتجميع كل هؤلاء فى وحدة واحدة خصوصا وأن المسيحية ما جاءت إلا لتقرب الناس بعضهم من بعض ، وتدعو إلى الحب والسلام والعمل على تجميع كل المذاهب ، فى وعاء المسيحية الحقة وما زالت ذاكرة التاريخ تحتفظ بالكثير من صور ونماذج التعذيب التى لاقاها الشعب المصرى فى ظل الحكم البيزنطى ..... وحتى بعد اعتراف الامبراطور بالمسيحية وظهور المذاهب المسيحية المختلفة فقد كان الأرثوذكس الملكانية والأرثوذكس اليعاقبة والطوائف الأخرى المسيحية من ناحية وبقايا الوثنيين والأريوسيين من ناحية أخرى [٩] ، كل له ميوله وفروضه ومشاربه فكانوا يتفقون أحيانا ويختلفون أحيانا أخرى ، واليهود ينتهزون فرصة هذا الاختلاف ليصطادوا فى الماء العكر ما شاء لهم الهوى ....

وحتى بعد وصول منشور قسطنطين بانتهاء الاضطهاد ، وتعليقه على أبواب المعابد الوثنية والميادين . لم يلتزم كل الولاة ، وحكام الأقاليم بما جاء فيه بل استمر التعذيب والتقتيل ، وما زالت ذاكرة التاريخ تتذكر استشهاد يوليوس الأقفصي ، الذى مات أثناء تعذيبه ، وهذه صورة من الصور التى كان يتعرض لها المسيحييون ، حتى مع وجود المنشور ، والذى ينص صراحة على أن يقوم المسيحيون ببناء الأماكن التى اعتادوا الاجتماع فيها ، ويقول كذلك إنه بناء على هذا الصفح الذى أذاعه قسطنطين طلب أن يتضرع المسيحيون لإلاههم من أجل سلامته وسلامة الشعب ، لكى يتم الصلح لهم.

هوامش الفصل الرابع

١- القس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ١٧٧ وما بعدها .

٢- حسنين ربيع - تاريخ الدولة البيزانطية - دار النهضة العربية - صـ ١٧ .

٣- حسنين ربيع - تاريخ الدولة البيزانطية - دار النهضة العربية - صـ ١٨ .

٤- د. حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ ٢٢ .

٥- د. حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ ٢٧ ، ٣٠ .

٦- حسين ربيع - مصدر سابق - صـ ٣٤ وما بعدها .

٧- د. حسين ربيع - مصدر سابق - صـ ٣٤ .

٨- د. حسنين ربيع - مصدر سابق - صـ ٤٦ وما بعدها .

٩- د. حسين ربيع - مصدر سابق - صـ ٤٨ وما بعدها .

الفصل الخامس

الاعتراف بالمسيحية
"مجمع نيقية"

مارسوا الصلح والسلام فيما بينكم ، واجتنبوا الحسد والنزاع...... ماذا يهم إذا فاق أحدكم الآخر فى الحكمة والفصاحة.

الإمبراطور قسطنطين
مجمع نيقية فى يوليو عام ٣٢٥

الاعتراف بالمسيحية
"مجمع نيقية"

بعد اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالمسيحية عند مدينة ميلان في مارس سنة ٣١٣ واعلانه وثيقة التسامح الدينى للمسيحيين وإصدارة وثيقة سميت باسم **(مرسوم ميلان)** تحتوى على حسن معاملة المسيحيين .

مع ملاحظة أن هذه الوثيقة أتت كتأكيد لما ورد في مرسوم جالريوس الصادر في عام ٣١١ م ، ذلك المرسوم الذى أعطى للمسيحيين وغيرهم من معتنقى الديانات الأخرى (أعطاهم) كامل الحرية في اتباع العقيدة التى يختارونها كما حث هذا المرسوم على أن ترد إلى المسيحيين معابدهم وكل أماكن تجمعهم ، كذلك

قد احتوى على وعد بإعادة ممتلكاتهم المصادرة ودفع التعويضات لهم من الخزانة الإمبرطورية واحتضانها لهم .

بهذا – وغيره – بدأت المسيحية تظهر في النور وتمارس العبادة وجميع الطقوس الدينية على الملأ ، بعد أن ظلت ردحا من الزمن حوالي ثلاثة قرون تمارس نشاطها الديني في الخفاء ، تحت الأرض وخلف الأسوار وفي الأماكن الخربة ، وذلك خوفا من قواد وجنود الإمبراطور وجواسيسه .

وبهذا أخذت الطوائف الدينية تتلاقى وتتحاور فيما بينهما ، وكان من الطبيعي أن يحدث خلاف – لحد ما – فيما بينهما ، وهذا الخلاف نتيجة طبيعية بعد فرقة وتباعد ثلاثة قرون كانت تمارس فيها العقيدة تحت الأرض وفي الصحروات وبعيدا هناك في ثنايا الجبال وفي الكهوف وبعد ذلك في الأديرة .

وهكذا كان عصر قسطنطين عصر انتصار المسيحية وانتشارها ووضعها تحت حماية الدولة.

وكانت مصر – حينذاك تمتلئ بالأديرة والقلايات في الأماكن النائية ومقابر الفراعنة المهجورة والكهوف المنعزلة وسط الصحارى الشاسعة حيث الذئاب الضاربة والحيوانات المفترسة التي أستأنسها الرهبان ، يجوبون الصحارى في حركة دائبة يحملون الحكمة والفلسفة إلى الأديرة وأماكن العبادة ، مزودين بالروحانيات والتقشف ، ولابدع في ذلك فمصر بلد العلم والفلسفة ،

كما كانت مشهورة – حينذاك –بجامعاتها العريقة ، مثل جامعات عين شمس (أون) ومنف وطيبة ، كما كان في مقدمة كل هذه الجامعات جامعة الإسكندرية ذات المكتبة الزاخرة بالكتب القيمة والمراجع الثمينة والأسفار الضخمة ، ومن هذه الجامعة كان يتخرج الأطباء والفلاسفة ورجال الدين واللاهوت والعلماء في شتى فنون المعرفة . كما جاء ذلك من قبل .

هكذا كانت مصر غنية بالعلماء ، ولا سيما علماء الدين والفلسفة بجانب أن مصر كلها بعد ذلك وقفت في خندق واحد وسط الجو الملئ بالانقسامات والمفعم بالصراعات بين الطوائف المختلفة ، والاختلافات المذهبية الحادة والمتشبعة الجديدة ، خصوصا وأن مذهب الطبيعة الواحدة (المونوفيزتى) كان قد تأصل بجذور عميقة في وجدان الشعب المصرى لدرجة أن الأباطرة كانوا قد اتبعوا سياسة الترغيب أحيانا وسياسة الترهيب والتهديد أحيانا أخرى ، كما قاموا بمحاولات عديدة لتقريب التوحيد بين المذهب اللاهوتي وبين معتنقي عقيدة الطبيعة الواحدة Monophystie وجذب كل ذلك إلىحظيرة الكنيسة القسطنطينية وهى كنيسة الدوله البيزنطية .

غير أن السياسة لهذا الخلاف الكنسى أدت إلى اتساع الفجوة الثقافية والدينية والقومية داخل الدوله البيزنطية.

وكثيرا ماكان يستخدم التهديد لنفس السبب ، وهكذا استمرت سياسة القمع والاضطهاد في الشعب المصرى بسبب اتساع الخلاف في الفكر اللاهوتي بين الحكام الذين يعتنقون المذهب الملكانى وبين الشعب الذى يعتنق المذهب اليعقوبى[1] .

وسط هذا الخلاف في الفكر اللاهوتي بين الحكام الذين يعتنقون المذهب الملكانى الطبيعتين وبين الشعب المصرى الذى يعتنق المذهب اليعقوبى الطبيعة الواحدة . وسط هذا الخلاف والاختلاف والصخب فكر الامبراطور قسطنطين في أن يسعى لرأب الصدع الذى نال من هيبة الدولة وأضعف كيانها ، ووجد أن السبيل إلى ذلك هو وحدة الكنيسة لتكون أساسا قويا وسببا مباشرا في قوة الإمبراطورية وعظمتها . اذا ماذا يعمل ؟ [2] .

تصرف قسطنطين لا بصفتة إمبراطورا رومانيا فقط ولكن بوصفه إمبراطورا وبابا بيزنطيا في أن واحد ، فقام بدعم عقد أول مجمع مسكونى (عالمى) في نيقية وذلك في عام ٣٢٥ ، هذا المجمع العالمى كانت مهمتة الأساسية القيام بالتعبئة الكنسية في أوساط الأساقفة ، بجانب أنه مؤتمر لتقريب المذاهب ثم الاتفاق على مذهب واحد . كما كان أيضا بمثابة مؤتمر لمحاكمة الهراطقة والمنشقين وأصحاب المذاهب والميول الانفصالية التى من شأنها الاختلاف والانشقاق بين

المسيحيين وبعضهم البعض ، وفحص رجال الدين والعقيدة وشئون الكنيسة ... إلخ .

وكان من كبار المعترضين على هذه المهام التى يقوم بها هذا المجمع العالمى (مجمع نيقية) هو الأسقف آريوس[٣] . وهو أسقف سكندرى ، كان لا يعترف بالمسيح وكان يعتبره بشرا ، وكان له مؤيدون فى مصر وفى خارج مصر وكان على رأس مؤيديه أسقف (نيوقومديا) عاصمة الإمبراطورية آنذاك . وكان من أكبر رجال الدين نفوذا.

وكان أعداء آريوس يسمون مذهبه أو عقيدته أوهرطقتة بالمشكلة الآريوسية التى تم إلغاؤها وإلغاء كل ماتتضمنه من نظريات وأفكار وآراء وقوانين . كما صدر قرار من (مجمع نيقية) بحرمان آريوس وأصحابه وإقرار قانون الإيمان الأرثوذكسى الذى دعى بالنيقاوى .كما صدر قرار يقرة كل (المفوضين) المندوبين بوصفهم ممثلين لشتى أنحاء الإمبراطورية باعدام كل من يخالف قرار (نيقية) وكل من يتستر على الآريوسيين (أتباع آريوس) [٤] ، فى حين أن (مجمع نيقية) نص فى قراره على أن جميع الحاضرين بالمجمع يعلمون ماصنع ، وليس لنا الا أن نوافق على أن كفر آريوس قد جره إلى القصاص منه والجزاء الرادع لغيره .

كما تضمن قرارا الملك الإدارى حرق كل مؤلفات (آريوس) وقتل كل من يعترف به أويخالف تعاليم (مجمع نيقية) وعلى رأسهم آريوس بالطبع وقد

وقع على هذه القرار ٣١٨ أسقفا وهم كل الأساقفة الحاضرون . بالطبع كان هذا القرار وإبرام هذا الاتفاق مصدر سعادة كبرى للإمبراطور الذى ما أن تم له ذلك حتى بادر بإقامة احتفال فى مجمع نيقية وأولم وليمة عظيمة دعا إليها ذوى الوجوه والأعيان والشمامسة والكهنة وغيرهم وأخذ يحادثهم بكل بشاشة ثم ألقى عليهم خطابا شاملا يحثهم على المحبة والوئام والتسامح والسلام فيما بينهم ، وهذا نص خطابه : "**مارسوا الصلح والسلام ، فيما بينكم واجتنبوا الحسد والنزاع . ماذا يهم اذا فاق أحدكم الآخر فى الحكمة والفصاحة ؟ لايجب عليه أن يفخر بنفسه ولا يجب على غيره أن يحسده ، لان الحسد والبغضاء من بذور الشيطان ، والمحبة والصفاء من غرس الرحمن والله وحده هو الذى يمنح المواهب ويقسم الحظوظ التى تجعل الإنسان أفضل من غيره ، وليتساهل القوى مع الضعيف لأنه لاكمال فى هذا العالم ، وعلينا أن نتجاوز عن ضعف البشرية ، اجتنبوا المنازعات فإنها تؤدى إلىالهزء والسخرية من قبل أولئك الذين هم دائما مستعدون للطعن فى الإيمان (٥) وعليكم أن تفكروا فى هؤلاء بنوع خاص فإننا نكسبهم إذا كان كل مايجرى بينكم خاليا من الشوائب ... ولاتكثروا من الكرازة (الوعظ) فإنها لاتفيد الجميع على السواء فبعض الناس يحتاجون إلىالمساعدة فى ضروريات معاشهم . ويحتاج غيرهم**

إلى الحماية والرعاية ، وأشعلوا نار المحبة بتقديم بعض الهدايا" .

هكذا كان الإمبراطور قسطنطين حريصا على لم شمل شعب الإمبراطورية تحت لواء عقيدة واحدة تظللهم امبراطورية واحدة.

والسبيل إلى انضوائهم تحت عقيدة واحدة ، هو لم شمل رجال الدين ليكونوا متحدى العقيدة ..... بدلا من اختلافهم شيعا وأحزابا ورؤوسا واذنابا .

وهذا راجع لما قدمنا وأشرنا إليه من قبل ، وهو أن المسيحيين الأوائل كانوا مجموعات صغيرة العدد يعبدون الرب فى الخفاء بعيدا عن أعين وآذان الجنود والضباط وجواسيس الرومان ، كما كان من الطبيعى أن تختلف الممارسات من مجموعة إلى أخرى . حيث كانت تلقنهما لظروف القهر التى يلاقونها ، وحياة العذاب، التى يعيشونها . ولهذا فعند ما ظهر هذا الدين الجديد من تحت الأرض ومن الكهوف والمغارات المهجورة ظهر بأشكال مختلفة وتفسيرات متباينة وممارسات عديدة ولكن مع الوقت عندما تمت المواجهة بين هذه الجماعات وتلك الطوائف – وظهرت التفسيرات وجها لوجة – حتى كثرت الخلافات وأخذت تظهر فى شكل مظاهرات ومحاورات حادة فى الفكر والبيان . كل يدافع عن وجهة نظره ويبررها بالأدلة العقلية والمنطقية .

ناهيك عن مجموعات الارتداد إلى الوثنية ، وكان أشهر المرتدين الإمبراطورية جوليان وكثير من بلاطه

جنودا وضباطا . كل هذا بجانب الخلافات الكثيرة التى لا تنقطع وقتذاك ، ومن أمثلتها : (موضوع تحديد الاحتفال بعيد القيامة للسيد المسيح ، كذلك إعادة تعميد الهراطقة وقبول العائدين منهم إلى الكنيسة ، ومسأله الزواج وغيرها . وكان يتزعم هذا الخلاف كل من كبريانوس أسقف قرطا جنة وأسطفانوس أسقف روما ، ووصل الأمر بكل منهم إلى أن عقد مجمع لتدعيم رأية عام ٢٥٥ م وكان لكبريانوس الأغلبية التى تؤيدة ، وقام فى ذلك الوقت البطريرك ديديانوس بطريرك الاسكندرية برأب الصدع وتضيق شقة الخلاف بينهما ، وقد لعب الشماس السكتدرى إثناثيوس الذى لم يكن يبلغ الثلاثين من عمره ، دورا محوريا وتقدم بقانون الإيمان المبنى على اثنتى عشرة مادة وفى نفس الوقت فند آراء آريوس وأقنعهم بأن آراء الأريوسيين مصيرها إلى زوال لأنه كما أن الأب آزليا يجب أن يكون الإبن أيضا أزليا .

وأخيرا استجاب المجمع لآراء اثناسيوس بأغلبية ورفض فكر آريوس وحرمانة.

وبدأت العقيدة المسيحية تأخذ شكلا محددا ، ووضع قانون الايمان المسيحى وتقرر أن الإبن أى المسيح من نفس جوهر الأب . وبالتالى قرر قدسية المسيح وأنه إله حق من إله حق ... وتم وضع قانون لنظام الكنيسة وانتخاب رعاتها وتدينهم ونظام الزواج ....,وخلافه .

وعلى الرغم من محاربة الآريوسية (٦) فى كل مكان والوقوف الدائم فى وجهها رغم ذلك ، فلم تغب ولم تختف بل ظلت حاضرة بأفكارها البسيطة الفطرية ، بل كان الملاذ والملجأ لشريحة كبيرة من الشعب المصرى ، تخاطبه بما يلائم طبيعتة وخصوصا الفقراء والفلاحيين والعمال البسطاء الذين لم ينالوا أى قسط من التعليم ، واستمرت كذلك حتى عصر الأنبا بطرس الثانى وهو البابا الواحد والعشرين ، وكان كاهنا من كهنة الإسكندرية ، كذلك الأنبا ثيموثيئوس الأول البابا الثانى والعشرين الذى حضر المجمع العالمى الثانى بالقسطنطينية فى عام ٣١٨ والذى قام باستكمال قانون الإيمان المبنى على إثنى عشرة مادة ، والخاص بالروح القدس المشار إليه فى المادة ٨ من ذلك القانون .

وجاء عصر البابا الرابع والعشرين الأنبا كيرس الكبير الذى لم يتوان فى الوقوف بصلابة لمحاربة الآريوسية ومحاربة البدع التى يمارسها الآريوسيون وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس الميلادى .

ومع ذلك كانت الآريوسية لاتزال تلقى التأييد فى نفوس وقلوب المسيحيين المصريين وفى أقاليم وأنحاء متفرقة من الإمبراطورية البيزنطية كالشام وفلسطين وآسيا الصغرى ، واستمروا كذلك يعبدون الله بطريقتهم التى لايرضاها الإمبراطور ولاترضاها الكنيسة خصوصا فى مفهوم اللاهوت والناسوت وغير ذلك من الأفكار التى ما كانت لتنقشع أوتزول بالتعذيب أو التقتيل أو التنكيل ، بل

ظلت هذه التعاليم الآريوسية على مدى أكثر من قرمين رابضة ساكنة في صدور العديد من المصريين .

ولنا في هذا الصدد أن نرجع قليلا إلى القرن الرابع حيث كان قيصر الشرق قسطنس بن قسطنطين (عام ٣٣٧م) وكان يميل إلى المذهب الأريوسى – ويبدو أنه اعتنق الأربوسية جهارا – فناصر الأريوسيين على الأرثوذكسيين ، ولذلك كانت هذه الفترة فترة عز ومتعة للأربوسيين ، فبدءوا بمساعدة جنود القيصر في اضطهاد من يختلف معهم في العقيدة وعلى رأسهم طبعا الأرثوذكسيين اليعاقبة على الخصوص .

وعزل قسطنس أثناسيوس وعين مكانه رجلا من طائفته يدعى (جريجوريوس) ودعمه بقوات وجند من الجيش ، فاستمر في ملاحقة الأرثوذكس في كل مكان ، وتتبعهم في أقاصي الصعيد وفي الصحروات والأديرة وأماكن العبادة المقدسة ، وهجم عليهم ذات مرة بينما كانوا يباشرون الصلاة في يوم جمعة الصلبوت وانضم إليهم رعاع اليهود والوثنيين ، وأخذوا يبطشون بالمصليين (٧) ، فهتكوا حرمة العذارى الطاهرات ، وقبض جريجوريوس الدخيل على أربعين فتاة عذراء وعراهن وضربهن بالسياط وقتل عددا وأفرا من الشعب على أمل أن يكون أثناسيوس من بين المقتولين وهكذا دنسوا الأماكن وأحرقوا الكتب الإلهية ، ثم نهبوا خزائن الكنيسة وأمتعتها وقتلوا الكثير من الرهبان الضعفاء بينما كانوا يدافعون عن كرامة بيت الله .

وفى هذا الصدد من المناسب أن نلقى الضوء على دور الكنيسة المصرية فى محراب العلم وفى أروقة وأرجاء الكنيسة ، فقد وضعت الكنيسة المصرية منذ القدم ، أن تكون دراسة العلوم الدينية والتجريبية جنبا إلى جنب مع دراسة اللاهوت ، أى أن الكتب كانت تقرن دراسة الدين مع العلوم ، وبالفعل مازالت ذاكرة التاريخ تحفظ بعض أسماء العلماء القديسين الذين تلقوا العلم على يدى ديونسيوس القبطى وأوريجانوس والحليمنصوس ، شارحين حضارة مصر وتاريخها وتراثها وإيمان شعبها العريق بما تحويه مكتبتها الشهيرة التى كانت تضم سبع مئة ألف كتاب خطى ، هذا علاوة على النسخ الأصلية الثمينة لترجمة العهد القديم باليونانية والقبطية والهيروغليفية (٨) .

وإن كنا الآن فى حياتنا المعاصرة قد استطعنا بفضل العلوم والتكنولوجيا أن نصل إلى أبعاد جديدة من العلوم ، إلا أن التراث المصرى القديم ، قد حافظت عليه جامعة الاسكندرية اللاهوتية ، وكان هو لأساس الذى بنيت على مبادئه العلوم الحديثة ، حتى أن كثيرا من العلماء لم يتركوا دراستهم العميقة عن الفلك ، والطب والصيدلة والكيمياء والهندسة والقانون والرياضيات ، ولكن أهم ما يميز جامعة الاسكندرية هو اعتمادها على الأساقفة ، وجميعهم بين العلوم اللاهوتية والعلوم التجريبية مثل القديس الطبيب "الأنبا ابسيدور" أسقف دمنهور ومدير مستشفاها (٩) . وقد ألحقه القديس

الأنبا أثناسيوس وهو بطريركا رئيسا لأكاديمية الطب ومستشفاها بكلية الاسكندرية اللاهوتية ، وأيضا ترك القديس الانبا أبسيدور عندما تنيح (مات) ، سبعين راهبا من أتباعه الذين تتلمذوا على يديه أصول الطب .

وفى مجال الموسيقى فقد وضع القديس ديديموس الضرير عميد كلية اللاهوت – أساس النوتة الموسيقية – ومن واقع معاناته من فقد بصره ، فقد وضع أيضا أساس القراءة البارزة للمكفوفيين .

وهكذا كان علماء الدين يتبادلون العلوم الفلسفية وكافة العلوم التجريبية ، والتى وصل أن أصحاب المعرفة ، اعتنقوا فلسفة تقول انه يجب الإبقاء على الديانة المسيحية ضمن حدود الفلسفة الإغريقية (١٠) ، وهذا ما دفع بالديانة المسيحية إلى منعطف اقتران الدين بالعلم والفلسفة وهيأ لها ظروف الخلاف والاختلاف ، وحاد بها عن عقيدة الفطرة والإيمان بالوحدانية بعيد عن الفلسفة والعلوم الدنيوية .

هوامش الفصل الخامس

١- القس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبـة - صــ ٨٦ وما بعدها .

٢- المصدر السابق صـ١٩١ وما بعدها .

٣- القس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ١٦١ وما بعدها .

٤- المصدر السابق .

٥- إبراهيم صبرى معوض - تاريخ حياة القديس أثناسـيوس - صــ ١٩٢ .

٦- القس منسى متى - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ١٨١ وما بعدها .

٧- القس منسى يوحنا - تاريخ الكنيسة القبطية - مكتبة المحبة - صـ ٨١

٨- صبرى معـوص ، تـاريخ حيـاة القديـس أثناسـيوس - دائـرة المعـارف القبطية - صـ ٩٤.

٩- صبرى معوض - تـاريخ حيـاة القديـس اثناسـيوس - دائـرة المعـارف القبطية - صـ ٩٤.

١٠- صبرى معوض - تاريخ حياة القديس اثناسيوس - دائـرة المعـارف القبطية - صـ ٢١.

الفصل السادس

رحلة الشتاء والصيف

بسم الله الرحمن الرحيم

لا يلف قريش إلفهم رحلة الشتاء والصيف، فليعبدوا رب هذا البيت ، الذى أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف .

صدق الله العظيم

رحلة الشتاء والصيف

منذ فجر التاريخ والتجارة تفتح نوافذ العلاقات بين الأمم ، ويؤكد ذلك رحلات القوافل التجارية التى تجوب الصحارى ، مخترقة الجبال والهضاب ، وتقطع المسافات ، فتجعل العالم وحدة واحدة ، وتؤكد هذه الرؤية قوافل الإبل التى تجوب الجزيرة العربية فى رحلتى الشتاء والصيف فى حركة دائبة لنقل التجارة والثقافة أيضا ، وفى هذا الصدد سوف نطل عزيزى القارئ من شرفة التاريخ لكى نرى المنطقة كلها برؤية أوسع ، أو قل بنظرة عين الطائر لكى تكون النظرة أشمل ولترى ما لاقتة شعوب هذه المنطقة من هول وما

ذا قوه على أيدى الروم من عسف وظلم ومذابح من جنود الإمبراطور ، فمازالوا يطاردون الآريوسيين ، وكل من يختلف فى مذهبه عن مذهب الإمبراطور ، ومازالت أخبار المذابح تتردد فى أرجاء المنطقة ، فى أطراف شمال الجزيرة العربية ، أو فى شمال أفريقية ، أو فى الشام أو فى مصر ، كانت الإمبراطورية الرومانية تترنح تحت حكم الأباطرة ككابوس يلقى بظلاله على أرجاء الامبراطورية الواسعة بالفوضى الهدامة والظلم الصارخ . ومن ناحية أخرى زادت هجرة اليمانية إلىالحجاز وشمال الجزيرة العربية وذلك عقب النشاط التجارى الذى سرى فى العالم القديم على إثر المد الرومانى ، وعلى الرغم من حركة الاتصال الدائمة بين الشمال والجنوب فى مواسم الحج وفى الأسواق مثل سوق عكاظ ، وخلال رحلات التجارة التى نوهنا عنها ، إلا أن العداء القديم بين القحطانيين مازال مستحكما فكان لكل قوم شعارهم ، وفى الحرب أعلامهم ، فاتخذ العدنانيون اليمانية العمائم والأعلام الصفراء ، واتخذ المضريون العمائم الحمر والرايات الحمر .

ومع توالىالأيام والاحداث ، والوقائع الحربية ، كان يزداد العداء ، وتقوى روح الشر بينهم ، ومن ناحية أخرى كان العداء شديدا بين الخزرج والأوس الذين خرجوا من اليمن بعد انهيار سد مأرب ، وبين سكان مكة ، وكان بينهما حزازات ومفاخرات ، كل يدعى أنه

أشرف نسبا وأعز نفرا ، وإن كان اليمنيون يدعون أنهم أحق بالفخر لما لهم من ماض تليد وحضارة قديمة .

وهكذا كانت القبائل عموما ، سواء كانت في اليمن أو في الحجاز أو كانوا مناذرة في الشام تحت حكم الرومان أوتحت سيطرتهم أو في نطاق نفوذهم ، أو غساسنة في العراق تحت حكم الفرس ، كلهم كانوا في عداء بعضهم لبعض ، وكانت المبادئ السائدة في هذا المجتمع هي الإخلاص التام للقبيله ، والقسوة في الانتقام ، والأخذ بالثأر الأسود والشجاعة الشخصية والشهامة المرتبطة بالدوافع الشخصية ، والكرم إلى حد السفه ، والجرأة على حرمة الجار .

رغم هذا كله ، فان أواصر القربى كانت فوق كل خلاف ، وفي النهاية كانت هذه الأواصر تجمع بين قبائل هذه المنطقة من العالم وكأنهم كانوا يعتنقون هذا المثل السائر (أنا وأخويا على ابن عمي وأنا وابن عمي على الغريب) هذا علاوة على التبادل التجاري ، إذ كانت القوافل التجارية تموج بالحركة بين مصر والشام ، وبين الشام واليمن مرورا بأراضي ومدن الحجاز ، المدينة ومكة ، وكانت هذه الرحلات تسمى رحلات الشتاء والصيف ، إذ كان أهل الحجاز يشدون الرحال إلى الأراضي الجنوبية في الشتاء ؛ إلى اليمن وحضر موت ، وفي الصيف يرحلون إلى الشام هذا علاوة على تبادل المراسلات فيما بين أطراف الإمبراطورية البيزنطية ، والإمبراطورية الرومانية الغربية ، كل هذا

بخلاف الزيارات الدينية ، فما زالت الأراضى المقدسة فى فلسطين ، تعج بالقادمين والحجاج لزيارة بيت المقدس وبيت لحم إن كانو يهودا أو مسيحيين وكانت سحب الظلم تخيم على كل أرجاء الإمبراطورية ، فكان البؤس يظهر على وجوه المارة فى الأسواق ، والاسواق بدورها يكتنفها الكساد فى التجارة ، حيث كانت العملة مغشوشة بزياة نسبة النحاس فيها فأصبحت لا تساوى شيئا ، والتجار فى فزع دائم يترقبون لهجمة لايدرون من أين تأتى .

فالإمبراطور - حتى بعد اعتناق المسيحية - يضارب فى تجارة القمح ليجمع فى خزائنة الذهب ، ورجال الدولة يقترفون كل الموبقات فى سبيل الثراء العاجل ، وخلال هذه كله سيطرت الأسرة الحاكمة والعائلات الكبيرة على النشاط التجارى ، ومع كل هذا فالتجارة لا تعترف بالسياسة ولا بالعداوات ولا تعترف بالظلم - حيث كانت القوافل تعرف طريقها ، ولا تعترف بالخمول والكسل - وتتحدى الحروب والقلاقل والثورات ، فالقوافل تخترق الفيافى فى دأب ، وصبر دائمين صيفا وشتاء ، ليلا ونهارا ... وكانت القوافل يتراوح عدد عيرها فيما بين مائتى بعير وألفى وخمسائة بعير ، وكان يشترك فى كل قافله عد كبير من التجار الصغار والكبار ، وكل على قدر طاقتة ، وحجم إمكانياتة ، وكانت قيادة القافلة تعقد لأحد كبار التجار ، ممن يمتازون بالحكمة والقدرة على التصرف ، ويكون

على علم بالطرق والدروب والوديان والمسالك ، ودراية بعلوم النجوم والمجرات والفلك ويكون أكثرهم جرأة وشجاعة وعليما ببواطن الأمور ... وكانت القافلة تنقسم إلى مجموعات ... وكانت الرحلات إلى الشمال حيث فلسطين والشام تتم في الصيف ، ورحلات الجنوب إلى ما هو جنوب مكة فى الشتاء – سهل تهامة وعسير وبلاد اليمن وحضر موت ولحج وعدن حيث البلاد الدافئة – ويكون تأثير الشمس أكبر ، لأنها أقرب إلى المنطقة الاستوائية والمدارية وكانت القافلة تسير طبقا لظروف المناخ ، فكانت تحدو أحيانا بالليل وأحيانا بالنهار ، وكانت للقوافل خطوط سيرومسارات تسلكها ، تتصف بالأمن وتمتاز بالأمان من ناحية ومن ناحية أخرى تمر ببعض مناطق الحضر ، والتى تكون ذات مصادر لمياه الشرب من عيون وآبار وبعض سبل الحياة ، لتزويد القوافل بالطعام والشراب وسبل العيش ، وتقوم ببعض الخدمات للقافلة من تجار وراحلين ومسافرين ، اذ كانت هذه القوافل تضم العديد من التجار الصغار والكبار ، من هم فى يسر ورغد ومن هم أقل من ذلك ، ومع بداية القرن السابع الميلادى ، بدأت أعمال التحرش بين الفرس والروم ، ذلك التحرش الذى بدأت معه بوادر الترقب لهجوم فارسى مقبل من الشرق ... أو هجوم الأفار أو الصقالبه من الشمال الغربى ، من البلقان ، والذى معه بدأت تتراجع رحلات العرب للشام وهى رحلة الصيف التى جاء ذكرها فيما قبل ، فإن

الدولة كلها فى حالة ترقب وترصد وتعقب لكل حركات المسيحيين فى المدن والقرى والجبال ، وأيضا همس الرهبان فى الأديرة وأماكن العبادة ، كذلك الترصد لأى نشاط مسيحى ، أو كهنوتى ، ومع كل هذا كانت بعض الرحلات تخترق هذا الخضم ، فالتجارة لا تعرف وطنا ، والمال لا يعرف دينا أو مذهبا ، فكانت رحلات عرب الجزيرة العربية – التجارية – تأتى من الجنوب مع كل صيف ، حاملة توابل الشرق والحرير والأثواب الهندية المشغولة والموشاة بخيوط الذهب ، وتحمل من الشمال ما تجلبه من منتجات يطلبها سكان الجنوب – فالحياة لابد أن تستمر مع السلام وأيضا مع الترقب وأثناء الحرب . وكانت القافلة تمتد لمسافة تصل إلى عشرة كيلو مترات وأحيانا أكثر وأحيانا أقل وكانت القافلة ، مكونة من مجموعات كأنها قطار ... مكون من عربات كل عربة أو كل مجموعة مكونة من مائة من العير فيما بين بعير وناقة ويرأس كل مجموعة قائد ... وكل مجموعة تعتبر كأنها قافلة مستقلة تحمل كل ما تحتاج إليه من طعام وشراب .... كل هذه المجموعات تتبع رئيس القالفة كلها وكانت القافلة تسير طبقا لنظام بديع وكانت القافلة هذه تشبه قطارات اليوم مثل الدرجة الأولى والثانية والثالثة ... فالدرجة الأولى تضم الهوادج التى تضم كبار رجال القبيلة وأغنياءها يحف بهم خدمهم وعبيدهم من أقنان وجوارى وكانت هذه الهوادج مجهزة بأحسن ما يكون التجهيز وأرفع ما تكون عليه الرفاهية

والأبهة والدرجة الثانية تضم الطبقة الوسطى والدرجة الثالثة تضم فقراء التجار وأيضا عبيد وخدم الأغنياء ، وتضم أيضا القافلة مجموعة الأبل التى تحمل البضائع بأنواعها المختلفة ، ومجموعة أخرى من الأبل تحمل المياه والطعام والعلوفة الخاصة بالأبل ، وهكذا ما أشبه الأمس باليوم .

الفصل السابع

عمرو بن العاص ورحلته إلى مصر

فلما قدم عمرو الإسكندرية أكرمه الشماس الإكرام كله....... وكساه ثوب ديباج ، وجلس عمرو والشماس مع الناس .... وأقبلت الكرة تهوى حتى وقعت فى كم عمرو وتعجب الناس : اترى هذا الأعرابى يملكنا

المقريزى
كتابه المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار
أغسطس ٦٠٢ ميلادية

عمـرو بن الـعـــاص ورحلـتـه إلـى مـصـر

وفى رحلة من رحلات الشتاء والصيف الدؤوبه التى كنا بصددها فى الفصل السابق ، كانت رحلة عمرو ابن العاص ، التى زار فيها مصر لأول مرة فـى تـاريخ سـابق لهزيمـة الـروم أمـام الفـرس - وفـى أوائـل العقـد الأول للقرن السابع الميلادى ، وكان نصيب عمـرو ابـن العاص فى هذه الرحله (القافلة) بعيرين .

وأستسمحك عزيزى القارئ ، فـى أن تقـف قليـلا عند شخصية عمرو والتعرف على هذه الشـخصية الفـذة الذكية المقدامة ، فان عمرو بن العاص منذ صغره كـان نموذجا فريدا ، فلم يكن ابن سيد من سادات قريش ، ولـم

يعتمد على جاه أوسلطان أومال - بل كان يعتمد على نفسه ونفسه فقط ، فعلم نفسه بنفسه القراءة والكتابة والحساب ودرب نفسه على الرماية والسباحة وجاب الصحارى والفيافى من أجل التجارة ، وأستطاع أن يكون رأس مال صغير اشترى به بعيرين ، وأصبح يشارك بهما فى قوافل التجارة وفى إحدى الرحلات التجارية التقليدية التى نوهنا عنها من قبل ، قدم عمرو فى قافلة فى نفر من قريش قادما من مكة ، وكان ذلك فى الأعم الأغلب فى صيف عام ٦٠٢ ميلادية .

وعلى عادة القوافل ونظمها ، أن تتجمع كل قافلة ، الابل والنوق والأبعرة الصغيرة فى مكان جنوب القدس ، ومن هذا المكان تتوزع مجموعات القوافل الفرعية ، كل قافلة تتجه إلى بلد أوعاصمة من عواصم المنطقة ، فتذهب قافلة إلى دمشق وقافلة إلى حلب وأخرى إلى معان فى الأردن وتخوم عمان ، وأخرى إلى حلب أوعكا ويبقى باقى الإبل والنوق للراحة فى منطقة التجمع - وهى الإبل التى تحمل الزاد والمياه فى هذه البطاح بعد أن اجتازت الصحارى والقفار وتبقى فى هذه المنطقة وهى الصحراء والوديان جنوب القدس - حيث يكون الكلأ منتشرا إثر أمطار الشتاء الماضى ، والحشائش تملأ الفيافى فى مساحات تحدد مجارى السيول ، وكان رعى الإبل محببا لدى شباب القافلة ، وبينما عمرو ابن العاص يرعى الإبل ، اذ به يقابل شماسا مصريا وقد أصابه عطش شديد فى يوم صيف

قائظ شديد الحرارة ، فسقاه عمرو من قربة له فشرب ، حتى ارتوى ونام الشماس مكانه ، من فرط الإعياء والتعب وكان الشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية ، قدم للصلاة في بيت المقدس .... ويبدو أنه كان يتعبد فى جبال المنطقة التى تقابل فيها مع عمرو بن العاص .

وأثناء نوم هذا الشماس فى ظل شجرة هائلة عجفاء خرجت حية من حفرة لها بجوار الشماس ... فبصر بها عمرو ، فنزع لها بسهم فقتلها ، فلما أستيقظ الشماس ، نظر إلى حية عظيمة قد أنجاه الله منها فقال لعمرو ما هذه ؟ فأخبرة عمرو أنه رماها فقتلها لتوها وكان عمرو مقاتل فذا ذا جرأة ورأى ثاقب ، فأقبل الشماس إلى عمرو فقبل رأسه وقال قد أحيانى الله بك مرتين ، مرة من شدة العطش ومرة من هذه الحية ، فما أقدمك على هذه البلاد ؟ قال قدمت مع أصحاب لى نطلب الفضل فى تجارتنا فقال له الشماس ، وكم تراك ترجو أن تصيب فى تجارتك ؟ قال رجائى أن أصيب ما أشترى به بعيرا فإنى لا أملك الا بعيرين ، فآمل ان أصيب بعيرا آخر فتكون إلى ثلاثة أبعرة ، فقال له الشماس أرأيت دية أحدكم بينكم ، كم هى ؟ قال هى مائة من الإبل ، فقال له الشماس لسنا أصحاب إبل إنما نحن أصحاب دنانير ، قال تكون ألف دينار فقال له الشماس إنى رجل غريب فى هذه البلاد ، وإنما قدمت أصلى فى كنيسة بيت المقدس وأسيح فى هذه الجبال شهرا ، جعلت

هذا نذرا على نفسى ، وقد قضيت ذلك ، وأنا أريد الرجوع إلى بلادى ، فهل لك أن تتبعنى إلى بلادى وذلك على عهد الله وميثاقه أن أعطيك ديتين لأن الله عز وجل أحيانى بك مرتين ، فقال له عمرو بن العاص أين بلادك ؟ قال بلدى مصر وأقيم فى مدينة يقال لها الإسكندرية ، فقال له عمرو أنا لا أعرفها ، ولم أدخلها قط . فقال له الشماس لودخلتها لعلمت أنك لم تدخل قط مثلها ، فقال له عمرو كفانى ما تقول ولى عليك بذلك العهد والميثاق ، فقال له الشماس نعم لك والله على العهد والميثاق أن أفى لك وأن أردك إلى أصحابك فقال له عمرو كم يكون مكثى فى تلك الرحلة ؟ قال له الشماس شهرا ، تنطلق معى ذاهبا عشرة أيام وتقيم عندنا عشرة أيام وترجع فى عشرة أيام ولك على أن أصحبك وأحفظك ذاهبا وأن أبعث معك من يرافقك ويحفظك راجعا ، فقال له عمرو بن العاص ، سأشاور أصحابى فى هذه الشأن فانطلق عمرو إلى أصحابه فأخبرهم بما عاهد عليه الشماس (١) ، وقال لهم تقيمون هنا على حتى أرجع اليكم ولكم على العهد أن أعطيكم شطرا من ذلك ، على أن يصحبنى رجل منكم آنس به ، فوافقوه وبعثوا معه رجلا منهم ، فانطلق عمرو وصاحبه الشماس المصرى ، فكان الوقت مناسبا لهذه الرحله فالصيف مازال فى أوله والرحلة إلى الإسكندرية ذهابا وعودة تستغرق شهرا كاملا تكون الدلتا بأفرع النيل السبعة التى تقطعها طوليا فى شكل مروحى تتفرع من

نقطة شمال قصر بابليون (باب ليون) بعدة كيلو مترات ، فى منطقة تحازى مدينة أون (عين شمس) فى ذلك الوقت تكون أفرع النيل السبعة أولها من جهة الشرق الفرع البيلوزى ، وآخرها من جهة الغرب الفرع الكانوبى . تكون نهايات ومصبات هذه الافرع على شاطئ البحر المتوسط جافه أو بها مساحات من المياه الراكدة من آثار تدفقات مياه شحيحة المصادر - هكذا كانت معظم أفرع النيل يسهل عبورها .... وتكون الأرض السوداء مشققة من شدة أشعة الشمس ، ومن قسوةالحرارة التى تختزنها الأرض خلال نهار طويل من أيام شهور الصيف يونيو ويوليو وأغسطس .. وتكون الأرض كما نسميها (شراقى) أى شرقانة أوعطشانة إلى مياه وفيضان النيل القادم ... فلم يكن النيل بفيضانه قد داهم أراضى الدلتا بعد .... وبدأ عمرو وصاحبه برفقة الشماس المصرى الرحلة مرورا بغزة والعريش وتانيس ودمياط ورشيد وكانوب والعديد من القرى المخربة من آثار القلاقل والأحداث الرامية التى عانى منها المصريين والتى مرت بها البلاد والكفور وتجمعات السكان المهدمة ، كل هذا عبر الحقول ، والمروج الخضراء والبحيرات المنتشرة والمستنقعات المتناثرة على أطراف البحيرات والبحر .... يعرجون على الحانات والخانات يمضون لياليهم ويقضون أوقاتهم ، يتناولون فيها إفطارهم وغداءهم وعشاءهم ، ويقضون ليلهم يتسامرون ...... فى مختلف

القرى ... منها القرى التى يعتمد أهلها على الصيد والقرى التى يعتمد أهلها على الزراعة ... وأخرى يعتمد سكانها على الرعى أو التجارة (٢) .

وهكذا كانت رفقة ثلاثتهم طيبة أنيسة ، فيها كل ما هو جديد .... وكانت الحقول حولهم ، وقتذاك مجهزة مشتاقة لاستقبال عام جديد ، وأفرع النيل جافة إلا من مساحات كبيرة تغطيها نباتات ورد النيل والبردى وأنواع مختلفة من النباتات المائية المنتشرة ومعظم الجسور منهارة من الإهمال ، والزراعات كسولة والنباتات الشيطانية فى كل مكان ، والمساقى والقنوات مغطاة بالطمى تكاد تكون مسدودة من عدم الاستخدام والفلاحون يبدو على وجوههم الشحوب والغربة ، لايكادون يقفون من شدة الهزال والقلق ، يرفعون المياه من مساحات المياه الراكدة القليلة المتناثرة فى النيل بشواديف مهملة متهالكة ، أويحرثون الأرض فى تكاسل بمحراث ضعيف النصل ، وآخرون تحت شجرة عديمة الأوراق ضعيفة يستظلون بأفرعها ، هكذا الأشجار هشة ، والنخيل مهمل أصابه العقم ، والزراعة هزيلة متناثرة ... فالزراعة تحتاج إلى انتظام ، والفلاح لا يعمل إلا فى استقرار وأمن وحب ووئام ولكن الفلاح فى مصر كان يعمل ويذهب قمحه إلى روما أو إلى القسطنطينية ، ويحصل على دراهم مغشوشة ... وقدر طاقتهم يديرون الحب ويجهزون أنفسهم لعام جديد يدعون الله أن يكون الفيضان المقبل ، فيضان خير لا هو بالشحيح الذى لا

يغنى ولا يشبع ولا هو بالفيضان الجامح يقضى على كل شئ ، لايبقى ولايذر .

وكان عمرو وصديقه يعبران أفرع النيل من أماكن مناسبة يعرفها المصريون مرة يخوضون المياه الضحلة ، ومرة أخرى يستقلون زورقا ضعيف أو عائمة من البردى تنقلهم من شاطئ لآخر .

واستمر السير هكذا أياما وليالى ، عابرين مياه النيل ، مارين بالقرى والكفور ، إلى أن مضت عشرة أيام ، ومع يوم شديد الحرارة قائظ شديد الرطوبة لاحت الإسكندرية على بعد بعماراتها البيضاء ، كل هذا عبر بحيرة مريوط ومستنقعاتها المحيطة بها والحقول والمروج الخضراء والنخل الباسق وانتهوا إلى مشارف الاسكندرية التى ظهرت من بعد بعماراتها العالية البيضاء ، وكانت الشمس تملأ السماء وتتوهج الأرض من شدة الحرارة ومع سقوط أشعة الشمس على جدران عمارات الاسكندرية الناصعة البياض تجعل منها عاكسا لهذه الأشعة وتجعل منها مرآة تخطف الأبصار ، فأشار الكاهن إلىعمرو بأن هذه هى الإسكندرية ، وعندما رآها عمرو وزميله من هذا البعد حفزهم بلهفة بالغة إلى سرعة لقائها ... فان عمرو دائما يحب كل ما هو جديد ، وأسرع الخطى على أمل أن يرى أعظم مدائن الدنيا وأقدمها . وفى هذا يقول المقريزى فى أن الإسكندرية أعيد بناؤها عدة مرات ، فأول مرة بنيت فيها بعد طوفان نوح فى زمن مصرابيم بن بيصر بن نوح وكان

يقول عنها حينذاك مدينة راقودة ثم أعيد بناؤها بعد زلك مرتين ، وأخيرا أعيد بناؤها وجددها الاسكندر وسميت باسمة (٣) ، وهو الذى قهر الفرس أيام الملك دارا وذلك بعد تخريب بخت نصر منف بمائة وعشرين سنة . وكان هذا الشماس كما يبدو حلو الحديث ، مازالت الفلسفة المصرية القديمة تملأ وجدانه ، والثقافة الحديثة والدين الجديد يجلوان حديثه ، وتنطلى كلمتة بالرقة والعذوبة وأيضا عمرو كان شابا تواقا للمعرفة ، فاستمر الشماس فى قصصة وحكاياتة عن مصر وما لاقاه الشعب من ظلم وتعذيب ، يتخلل هذا الحديث المفعم بالدراما الإنسانية ، الحديث عن الديانات القديمة والجديدة الخلافات المذهبية فى طبيعة يسوع المسيح عليه السلام، طبيعة البشرية أو الإلهية أو كليهما .... فلا بدع ولا غرابة في ذلك فهو رجل دين وكانت الجزيرة العربية مازالت في وثنيتها ، وإن كانت ارهاصات الدين الجديد وبعض النبوءات بدأت تتردد عن الرسول محمد عليه الصلاة والسلام ، ويبدو أن الرسالة الإسلامية بدأت فى بعض بيوت مكة - وتنبأ بحيرى وورقة بن نوفل بنبى سوف يرسل إلىالناس كافة - فظل عمرو يسمع القصص من الكاهن المصرى العذب الحديث وعقله هناك فى بلاده - فى مكة - لعله كان قد سمع بعض الأحاديث عن الدين الجديد . وأخيرا وصل عمرو بن العاص إلى الإسكندرية حيث المبانى المرتفعة المكونة من عدة طوابق كما تكثر بها الأطلال

تصبغها الحرائق وإن كانت تظهر على أطلالها العظمة والأبهة أكثر مما تظهر فى المبانى الجديدة – فإن أعمال السلب والنهب والتعذيب الذى يلاقيه الشعب على أيدى الروم البيزنطيين الذى لم يتركوا القصور ولا المبانى بدون هدم وتخريب ... فكل هذا كان يوحى بروح الانتقام التى صبغت المبانى والمعابد والكنائس ، فمن الإسكندرية خرجت المذاهب العديدة وبها التكتلات الدينية والسياسية فمنهم من يعمل لحساب الإمبراطور – ومنهم مازالت الديانات القديمة تؤثر عليه ... ديانة الآباء ومنهم من يتطلع إلى الدين الجديد فمنهم من يؤيدون كنيسة أنطاكية ومنهم يؤيدون كنيسة الإسكندرية الأرثوذكسية المونوفستية (مذهب الطبيعة الواحدة) ومنهم من يتعاطفون مع الكنيسة الرومانية فى روما ومن يهادنون كنيسة القسطنطينية الملكانية (مذهب الطبيعتين) حيث سلطان القيصر هرقل ، كلهم من الأغنياء الرومان أما الفقراء المصريون فمنهم من يعيشون على الأساطير .... ومنهم من يعيش على ذكر الله – قد يكون هم الأريسيون أتباع آريوس ومازالت الآريوسية فى صدروهم – ألا بذكر الله تطمئن القلوب ، كل هذا ومازالت قصص الشهداء تتردد فى جوانب الكنيسة والأروقة والدهاليز وفى داخل البيوت ، بداية بقصة الشهيد مار جرجس وأفكار آريوس ، وأيضا مازالت قصص اثنا سيوس الرسول فى وجدان شعب الإسكندرية .

واليهود من ناحية أخرى يسيطرون على الاقتصاد فى الإسكندرية ويتحكمون فى التجارة بأموالهم وذهبهم ومجوهراتهم ، وأيضا يحيكون المؤامرات والدس والخديعة .

هكذا دخل عمرو ابن العاص الإسكندرية بصحبة الكاهن المصرى مبهورا بهذه العمارة ، وازداد انبهاره بطرقها المستقيمة المزودة بالأرصفة والأعمدة والأروقة المظللة ، هذا علاوة على ميادنيها الواسعة(AGURA) ذات الأرصفة والأروقة ذات الأسقف المائلة لحمايتها من الأمطار فى الشتاء وأشعة الشمس المحرقة فى الصيف وفى أطراف المدينة الأسواق العامرة على أحسن مايكون تجهيز الأسواق . وفى الشمال يوجد الميناءان الشرقى والغربى يعجان بالحركة والنشاط ، فالميناء الشرقى هو ميناء التجارة حيث يتم يوميا نقل الحبوب والنبيذ من المزرعة المصرية إلى روما والقسطنطينية عاصمتى الإمبراطورية الشرقية والغربية ، وإلى الموانئ الكبيرة فى الإمبراطورية الواسعة المتداعية والميناء الشرقى هو الميناء الحربى ، والحركة أيضا مستمرة فيه فهناك التحرش على منطق الحدود فى البلقان .

وفى أقصى الشرق كان التحرش مستمرا بين الإمبراطورية وفارس ... وفيما بين الميناءين الشرقى والغربى على رأس جزيرة راقودة (راكوتس) كانت منارة الاسكندرية حينذاك ، وكانت إحدى عجائب الدنيا

السبع بناها بعض البطالسة ملوك اليونان بعد وفاة الإسكندر بن فليليب لما كان بينهم وبين ملوك روما من موجات الحروب في البحر والبر فجعلوا هذه المنارة ، مركبا في أعاليها مرآة عظيمة من نوع الأحجار الشفافة يشاهد منها راكب البحر ، إذا أقبل من روما على مسافة تعجز الأبصار عن إدراكها ، فكانوا يراعون ذلك في تلك المرآة حتى يستعدوا له قبل وروده وارتفاع المنارة في ذلك الوقت على التقريب مائتان وثلاثون ذراعا ، وكان طولها قديما أربعمائة ذراع ، فهدمت على طول الزمان وترادف الزلازل والأمطار ، لأن الإسكندرية مدينة ممطرة .... وهيئة المنارة على ثلاثة طبقات ؛ الجزء الأسفل أقل من النصف وأكثر من الثلث مربع الشكل تم بناؤه بأحجار بيضاء - بارتفاع أكثر من مائة ذراع ثم الثلث الثاني مثمن الشكل بارتفاع أقل ، وبني بالحجر والجص وحولها فضاء كالشرفة يدور فيه الإنسان والثلث الأخير مستدير ومركب عليه المرآة والأحجار الشفافة لتكشف عن سفن الأعداء القادمة من بعد وأيضا لإرشاد السفن الصديقة .

وكانت الإسكندرية بمبانيها المرتفعة الناصعة البياض تخطف الأبصار فقال عمرو للشماس ما رأيت مثل ذلك أبدا ، لكثرة ما فيها من الأموال والعمارات عظمة ودقة ، وارتفاع مبانيها ، وكان يتردد أنه ليس في الدنيا مدينة على ثلاثة طبقات غير الإسكندرية ، والمدينة كما خططها ديمونقراطيس مهندس الإسكندر

المقدونى منذ عشرة قروون مضت عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، استمرت فى العمران والتقدم وكانت الميادين تزينها وكان فى أكبر ميادينها ميدان عمود السوارى الذى كان ارتفاعة خمسة وسبعون ذراعا أى حوالى٢٧ مترا وقطره حوالى٢,٧م من أسفل ومن أعلى ٢,٣م وقد أقامه يوستموس حاكم الإسكندرية فى معبد السرابيوم بمناسبة زيارة الإمبراطور دقلديانوس ، وحوله الرواق الدائرى والذى يأخذ شكل الميدان ، يحمله أربعمائة عمود جيرانيتي وقد تحول المعبد إلى كنيسة فى عهد البطريك تاوفليس فيما بعد - وكان يطل على ميدان مكتبة الإسكندرية ودار الحكمة التى كانت تسمى باسم الفيلسوف أرسطاطاليس الحكيم الإغريقى وكانت جامعة الإسكندرية تطل على الميدان ، وكانت تضم كلية للطب بأقسامها المختلفة ، علم الترشيح وعلم وظائف الأعضاء وجراحات المخ والأعصاب والدورة الدموية ، وحتى الأمراض العقلية والنفسية أو الطب الروحى والتى كانت أساسا فى الطب حينذاك ووافق دخول عمرو الإسكندرية عيدا فيها عظيما يجتمع فيه أعيان الإسكندرية ، وأشرافهم وكبار الموظفين والمسئولين ولهم كرة من الذهب ، مكلله يترامى بها كبرائهم وهم يتلقفونها بأكمامم ، وفى اخيتارهم لتلك الكرة على ماوصفها من مضى منهم أن من وقعت الكرة فى كمه واستقرت فيه لم يمت حتى يملكهم ، وأثناء إقامة عمرو فى الإسكندرية فى ضيافة الشماس حيث أكرمه الإكرام كله وكساه بثوب

من ديباج وألبسه إياه ، دعاه إلى حفل الكرة الذى وصفناه ... وجلس عمرو والشماس فى مكان متميز فى مدرجات الملعب مع كبار القوم حيث يترامون بالكرة وهم يتلقفونها بأكمامهم فرمى بها رجل منهم فأقبلت الكرة تهوى حتى وقعت فى كم عمرو (٤) فعجبوا من ذلك وقالوا ماكذبتنا هذه الكرة قط إلا هذه المرة أترى هذا الأعرابى يملكنا ؟ هذا مالا يكون أبدأ . وبدأ الشماس يطوف بعمرو فى مدينة الإسكندرية ، ويقدمه للناس ويخبرهم بأن عمرو أحياه مرتين ، وأنه ضمن له ألفى دينار ، وسألهم أن يجمعوا ذلك فيما بينهم ، ويبدو أن هذا الشماس كان ذا حظوة عند أهل الإسكندرية وكبار قومها ، فقام أهل الإسكندرية بجمع ألفى دينار ، ودفعوها إلىعمرو ومضت عشرة أيام فى الإسكندرية رأى عمرو كل الأماكن والأسواق والساحات والموانى والشواطئ واقترب من الكنائس ، ولعله دخل المكتبة الكبيرة أو تجول فى جامعة الإسكندرية وزار أقسامها وعنابر المرضى وحجرة العمليات ، واخيرا اقترب موعد رحيله فاستأذن عمرو فى مغادرة البلاد وتعانق الرجلان بكل الجلال والحب واغرورقت العيون بالدموع فى المآقى فهذه اللحظات لايجود الزمان بمثلها مع كلمات الود والحب والوعد باللقاء .

وأنطلق عمرو وصاحبه وبعث معهما الشماس دليلا ورسولا وزودهما وأكرمهما ، حتى رجعا إلى أصحابهما فى مكان تجمعهم فى جنوب فلسطين ، ودفع

إلى أصحابه فيما بينهم ألف دينار ، وأمسك لنفسه ألف دينار وقال عمرو كان هذا القدر من المال أول مال كسبتة . وخلال هذه الرحلة من فلسطين إلى الإسكندرية ومن الإسكندرية إلى فلسطين مرة أخرى ، مرورا بالقرى والريف والمدن ومخالطة للأهالي الفقراء والأغنياء ، والتجار والفلاحين والكهان والرهبان والقساوسة ، هذا بالاضافة إلى جحافل الاستعمار البيزنطي من ضباط وجنود وموظفين ، وخلال هذا الحشد الهائل من البشر سواء كانو مصريين مستعبدين أوبيزنطيين مستعمرين ... عرف الكثير والكثير عن بعض الأمور و عرف خلالها المداخل والطرق والمسالك والوديان والجسور ... والأماكن التى يمكن الإقامة فيها واستطاع أن يحس بالشعب المصرى وما يعانيه من جنود الروم وما يقاسيه من ظلم وقهر ، فى هذه الرحلة قد يكون فى هذه الرحله قد اختزن الكثير من صور هذا الظلم الذى يعانونه – وخلال هذا الشهر الملئ بالأحداث والحركة يبدو أن عمرو استطاع أن يقيم بعض الصداقات مع الرهبان والقساوسة المصريين خلال صداقته وصحبته مع الشماسي الذى دعاه لهذه الرحلة العظيمة والمليئة بالأحداث – فقد لازم بعضهم البعض لمدة شهر ، لم يفترقا قط – عرف عمرو فى هذا الشهر الكثير عن عادات أهل مصر وظروفها الاقتصادية والاجتماعية حتى الأخلاقية ، ولعله استطاع أن يعى ويحفظ بعض المفردات المصرية بما هو معروف عنه

من ذكاء ومقدرة على الاستيعاب والحفظ ... كانت هذه الأحداث في الأعم الأغلب في عهد الإمبراطور البيزنطي فوقاس والذى كان عصره من عصور الانهيار العسكرى والاقتصادى والذى حكم فيما بين عامى ٦٠٢ و ٦١٠ م ، واختزن عمرو كل هذا لأيام قادمة ، يخبئها له القدر ...... وسوف ترى في الأوراق والفصول التالية كيف تحققت نبوءات رسول الله محمد عليه الصلاة والسلام .

هوامش الفصل السابع

١ – المقريـزى – كتـاب المواعـظ والاعتبـار – الجـــزء الأول (ص ١٥٨ وما بعدها)

٢ – المقريـزى – كتـاب المواعـظ والاعتبـار – الجـــزء الأول (ص ١٥٥ وما بعدها)

٣ – المقريزى – كتاب المواعظ والاعتبار – (ص ١٤٤ وما بعدها)

٤ –المقريزى مصدر سابق (ص ١٥٩)

الفصل الثامن

مصر بين الفرس والروم

بسم الله الرحمن الرحيم
الم غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر من الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .
صدق الله العظيم

مصر بين الفرس والروم

تولى هرقل الكبير والد الإمبراطور هرقل الولاية البيزنطية فى شمال أفريقية عام ٦٠٧ م فى عهد الإمبراطور فوقاس فيما بين (٦٠٢ - ٦١٠) م وكانت الإمبراطورية حينذاك يعمها الفساد والانهيار والانحلال بما فيها ولاية مصر طبعا ، وكان الإمبراطور فوقاس يمنع دخول البطاركة المصريين (اليعاقبه) إلى الإسكندرية ، ولكن البابا انطانيوس البيطريرك السادس والثلاثين الذى جاء بعد البابا دميان (٦٠٣م) كان قوى الجنان ، يدخل الإسكندرية متحديا أوامر الإمبراطور لتثبيت الإيمان فى نفوس الشعب ، يرسم فيها الكهنة ،

وأخذ يعمل مع قومه وتلاميذه حتى استرد ما استولىعليه الملكانيون من كنائس المصريين اليعاقبة ، وحينذاك كان الصراع على أشدة بين المصريين والبطاركة الملكانيين البيزنطيين إذ كانت وظائفهم الأساسية ، وظائف سياسية استعمارية أكثر منها دينية بدليل أنه لم يكن لهم عمل سوى تنفيذ أوامر الإمبراطور والذى أحس بتآمر قيادات الإمبراطورية على الاشتراك الجماعى فى انقلاب يطيح بالإمبراطور عام ٦١٠ م وانتهى الانقلاب باعتلاء الإمبراطور هرقل (الابن) عرش الدولة البيزنطية فى القسطنطينية فى نفس العام وبالطبع كانت الدولة البيزنطية عندما تولى هرقل حكمها ، قد استفحل الخراب فيها ، فقد كانت الحالة الاقتصادية سيئة للغاية ، وعمت بها الفوضى ، وتعرضت الأقاليم الشرقية لاعتداءات الفرس ، والأقاليم الغربية لاعتداءات الافار الصقالبه كما جاء ذكر ذلك من قبل وبالفعل هزم الفرس الروم فى عام ٦١١ واستولوا على الشام وهزموهم فى موقعة أخرى فى عام ٦١٣ عند انطاكيه .. ، وبعد ذلك استولوا على دمشق ومنها اتجهوا إلى فلسطين ، وفى السنة التالية استولوا على بيت المقدس وكان السقوط فى أيدى الفرس لطمة قوية للبيزنطيين ، حيث استولوا على الكنائس ونقلوا الصليب إلىعاصمتهم واستولوا على كل المجوهرات والذهب الموجود بالكنائس وبالقصور والمتاجر ونهبوا وسبوا من سبوا .

وفى اثناء ذلك فر كثير من مسيحى سوريا إلى مصر لاجئين إليها من ظلم الفرس ، وكان ضمنهم رجال الدين الملكانيين ، وعلى رأسهم البطريرك يوحنا الملقب بالرحيم ، وكان البابا إنطاسيوس بابا كرسى الإسكندرية يقدم كل ما فى وسعه من خدمات لتخفيف وبلات المسيحيين الفارين ، ويخفف كربهم وقد قدم يوحنا بطريرك الشام مساعدة مالية للبابا المصرى أيضا ، حيث كان أكثر ثراء وأوسع منه ثروة لأن البطاركة الملكانيين كانوا يضعون أيديهم على ايراد الكنائس القبطية وأملاكها ، ولم يكن لدى البطريرك المصرى سوى ما يجمعة من المسيحيين لسد احتياجاتة فتوطدت علاقة البابا انطاسيوس مع يوحنا بالود والصداقة لما قدمه البطريرك الانطاكى .

وكان البابا انطاسيوس فى آيامه هذه يتمنى أن يجمع الله بين الكرسيين الباباويين الإسكندرى والأنطاكى ويتحد الفكرين اليعقوبى والملكانى ، ولم يطل به العمر فتوفى مع أوائل الاحتلال الفارسى بدون أن تتحقق أمانيه وتولى بعده البابا اندرينكوس ولم يستمر فى البابوية اذ كان وجود الفرس فى الشام وفلسطين له آثارة على المنطقة كلها ومصر بطبيعة الحال ، واستمر الاضطهاد الفارسى للمناطق التى وصلوا إليها فى الشام وفلسطين ، وفى هذه الأثناء توفى بطريرك الملكانيين (كنيسة انطاكية) وبعده بعام واحد توفى بطريرك الكنيسة المصرية البابا اندرينكوس ولم يتم تعيين أوانتخاب بابا

خلفا له ، فى هذه الظروف السيئة والاضطهادات والمتلاحقة لرجال الدين سواءا كانوا ملكانيين أو يعاقبه .

فى ذلك الحين – كان هرقل يدافع عن عاصمة ملكه – لذلك لم يتم تعيين بطريريك للملكانيين لكنيسة أنطاكية ولا لليعاقبة فى مصر خلفا للبابا أندرنيكوس .

وهكذا استمرت الكنيستان بلا رئاسة لكل منهما ... وفى أثناء ذلك كانت جيوش الفرس تتقدم نحو آسيا الصغرى واستولت على مدينة كريوبوليس بالقرب من عاصمة القسطنطينية . وتقدم جانب آخر من الجيش إلى حدود مصر يتهددها ويتوعدها وكان ذلك فى عهد الملك كسرى أنو شروان .

اسمح لى عزيزى القارئ أن نرجع مرة ثانية ونلقى نظرة على الحالة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية فى مصر ، عندما تولى رعاية الكنيسة المصرية البابا اندرونيكوس البطريرك السابع والثلاثون عام ٦١٤ والشعب المصرى فى حالة من السلبية واللامبالاة فيما يتم من حروب ومعارك بين الروم أو الفرس على أرضهم وكأن الموضوع لايعنيهم ، وقد يدهش لذلك قارئ التاريخ أو دارسه ، لهذا الهوان والعذاب والخنوع ، لهذه السلبية ، ولكن الخقيقة أنهم مغلوبون على أمرهم ، وأيضا هم أهل إيمان بالقضاء والقدر ، وهم قانعون بالآخرة فإن الآخرة هى دار المقام والدوام وما الدنيا الا دار عبور .

ومع الانحلال الذى أشرنا إليه فى جيش وحكومة البيزنطيين ومع السلبية السطحية الظاهرة للشعب المصرى ، ومع الخلاف العقائدى التى نوهنا عنها .

مع ملاحظة أن الشعب المصرى بكل فئاتة وقياداتة الشعبية والسياسية والدينية ليس له ناقة ولا جمل فى هزيمة الروم أو انتصار الفرس او ما هو عكس ذلك ، فالمصريون بين نارين مالا قوة من عذاب على أيدى الروم من قتل وهدم للكنائس والأديرة وهذا ما سوف نوضحه فى الأوراق التالية وما لاقوه من اضطهاد مذهبى قبل ذلك ، فهم يختلفون مع البيزنطيين فى العقيدة ، فالمصريون يعتقدون فى عقيدة الطبيعة الواحدة ، والحكام يعتقدون فى عقيدة الطبيعتين للإله ، كذلك المصرين يعانون من العذاب وسوء المعاملة وفرض الضرائب والجزية والأتاوات الباهظة والمرهقة ، كل هذا بجانب المناخ السياسى الفاسد ، الذى تتشابك فيه السياسة القومية مع خيوط الدين والعقيدة فى حين أن هذه العقيدة كانت تضم بين جنباتها صراعات شتى بين العقائد المختلفة والمتضاربة فيما بين الحقيقة والهرطقة ، مثل عقيدة الطبيعة الواحدة وعقيدة الطبيعتين كما جاء ذكر ذلك من قبل ، وأيضا التفسيرات العديدة مثل المشيئة الواحدة والمشيئتين ، هذا علاوة على الآريوسية التى كان على ما يبدو يعتنقها الكثير من عوام المصريين ، وهكذا كان الشعب المصرى وخصوصا البسطاء والفلاحين حيث كانوا فى حالة تشبه الفراغ

وضباب الرؤية والفهم ، فكل ما يدور حولهم صعب الفهم ، وغير واضح الرؤية ، وهكذا كانوا يدورون حول أنفسهم ، كطبيعة أى شعب مغلوب على أمره من حكامه ، تنتابه حالات عدم الانتماء والضيق والبؤس والحيرة لعدم درايته بما يدور حوله ، هكذا كان الشعب المصرى ، والقوات الفارسية على الأبواب وجيش كسرى يرفع الرايات ، حيث تم دخولهم أرض مصر فى سيناء بدون أية مقاومة تذكر حيث تقدم زاحفا كالاعصار وذلك فى غضون عاممى ٦١٨ - ٦١٩ (١).

وبدأت الحصون المصرية فى السقوط ، وكان آخرها حصون الإسكندرية فى غضون عام ٦٢٠ ، وفرت الحاميات الرومانية أمام قوات الفرس ... فلم يجد الفرس أمامهم إلا المصريين العزل ، الذين لجأوا للكنائس والأديرة والبقية الباقية اختبأت فى المنازل النائية .. هكذا وجدوا المدن خالية . وهجموا على الكنائس والأديرة وعاثوا فسادا ، وأعلن القائد الفارسى فى الإسكندرية أنه سيعطى كل مصرى من أهل الإسكندرية فيما بين ابن ثمانية عشر عام إلى ابن خمسين عاما عشرين دنيارا ، وحدد مكانا خارج المدينة لكى يعطى لكل شاب ورجل الدنيارات ، فلما خرجوا إلى مكان تجمعهم خارج أسوار المدينة تم حصارهم بمجموعة من الجند المسلحين ، وفجأة أعطى لهم أمره بالإبادة . واعملوا فيهم السيوف ، فقتل منهم ثمانون ألف رجل وشاب (٢) .

وبعد ان مات من مات وهلك من هلك ، تتبع الرهبان الذين يسكنون الجبال فى الكهوف والمغارات والأديرة ومقابر المصريين القدماء المهجورة وقد وصل عدد من قتل من الرهبان فى يوم واحد ستة آلاف راهب .. حاصرهم فى المساء ، ومع شروق الشمس أمر بقتلهم جميعا ظنا منه أنهم يملكون ثروات وخيرات يخبؤنها فى أدريرتهم كنائسهم ، وبلغت الأديرة التى خربوها فى ضواحى الإسكندرية ٦٢٠ ديرا كان يسكنها رهبان وراهبات وكذلك دمروا أديرة الرهبات بمنطقة وادى النطرون (٣) .

هذا واستمرت ملاحقة الجيش الفارسى لفلول الجيش البيزنطى الهاربة والهائمة فى حقول وصحارى مصر .. حيث كان المصريون ينالون نصيبهم من التعذيب والتقتيل ، وكان اليهود يقومون بدروهم المعهود فى التودد للفرس الحكام الجدد ، على حساب الشعب المصرى ، وأيا كان العذاب الذى لاقاة المصريون على أيدى الفرس ، إلا أنه كان فرصة للخروج من وطأة الاضطهاد البيزنطى ، وازدادت موجة الرهبنة واستقطاب الشباب المسيحى لهذه الموجه ، واتجة إلىالصحراء ، حيث الأديرة والقلايات والكنائس هروبا من الاضطهاد الذى أشرنا إليه من جانب الاحتلال الفارسى ، وأيا كان مستوى هذا الاضطهاد وشكله ، فالمصريون من جانبهم آثروا السلامة وفضلوا الاستسلام والسلام فهم عزل ، كانوا لايملكون الا التعاون مع

الاحتلال الجديد أو الاعتزال والهروب والهجرة ، واللجوء للصحراء فهم لاحول ولاقوة لهم لايستطيعون مقاومة هذا الاستعمار البغيض ، إزاء القهر ، كانوا طبعا يمدونة يحاجاتة من الطعام كالغلال والبقول ، وبكل ما يطلبه جيش الاحتلال من عدة وعتاد ، وخلال هذا المناخ الذى يتسم بالقهر والبطش والقوة كانوا يدفعون ماتطلبه قوات الاحتلال من عشور وضرائب وجزية ، وأيا كان لون العذاب على أيدى الفرس فهو أهون من علاقة المصريين بالبيزنطيين إذ أن العلاقة بالفرس هى علاقة السيد بالعبد ، من خلال واجبات يؤديها الشعب المصرى ، وهو تقديم المؤونة والجزية المقررة والتى فى الغالب الأعم ترهقة وتهد كيانه ....

فى هذا الوقت كان النزاع البيزنطى الفارسى فى طريقه إلى الانتهاء عندما لم هرقل شمل قواتة وشتات جيوشة ، وبدأ فى إعادة تشكيل جيوشة ، وبالفعل تمت هزيمة الفرس ، قرب مدينة الموصل (أطلال نينوى) وطلب الفرس الصلح واسترد الروم الأقاليم التى فقدوها ومنها بالطبع مصر وكان انتصار الروم على الفرس تصديقا لما نزل من القرآن الكريم على خاتم الأنبياء والمرسلين النبى الأمى- المكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل قبل ذلك بعدة سنوات - فى سورة الروم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الم غلبت الروم ، فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويؤمئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

صدق الله العظيم

وبعد دخول الروم أرض مصر مرة ثانية توجس المصريون خيفة من هذا الاستعمار القديم الجديد .. فقد عانوا الكثير من الاضطهاد الدينى والقومى والسياسى ... وبدأو فى ترتيب أنفسهم وتنظيم صفوفهم وشرعوا فى انتخاب بطريرك ، لهم فقد عانوا من الفراغ السياسى والدينى .. وتنبه الروم ، وأرادوا محاكاتهم خوفا من أن يستغل البطريرك المصرى ويستولى على إيراد الكنائس التى أصبحت فى حيازتهم ولم ينتظروا أمر القيصر بل انتخبوا بطريركا لهم وكان المصريون قد انتخبوا البابا بنيامين أحد الرهبان المحبوبين ... من دير يعرف بدير قنويس وهو من الأديرة القليلة التى لم يهدمها الفرس على عروشها وإن كانت لم تسلم من التخريب ومن النهب والسلب ، وكان البابا بنيامين مصريا قحا وليس إغريقيا أو رومانيا ، وفى هذا الصدد نرى ضرورة القاء الضوء على حياة هذا البطريرك الطيب فقد نشأ فى مريوط من عائله مصرية ثرية ومريوط حاليا منطقة أثرية غرب المنطقة فيما بين الاسكندرية وكفر الدوار ،

واستقر البابا بنيامين البابا الثامن والثلاثون على كرسى الإسكندرية عام ٦٣٠ فى عهد هرقل مع دخول الروم مصر ، واستمر البابا بنيامين فى تقديم الحب والخير للكنيسة والشعب المصرى - وكان الشعب المصرى يبادله نفس الحب وإن كانت حياته سلسلة من الأوجاع والتشرد والهروب ، فلم يكد يتقلد كرسى الباباوية حتى أوفد هرقل قيصر البيزنطيين (الروم) واليا على مصر يدعى كيروس (المقوقس) ليكون واليا وأيضا (بطريرك) ولكى ينال هرقل رضا المصريين كلف كيروس هذا بنشر مشروع الاتحاد القائل بأن لله مشيئة واحدة بدلا من قولهم طبيعية واحدة وكان هذا الفكر يتعارض مع إيمان المصريين بنظرية الطبيعة الواحدة ، وعلى رأسها طبعا بطريرك الروم . فهو بالاضافة إلى أنه عداء مستعمر لشعب مستضعف فانه أيضا - فإنه عداء مذهبيا وعقائديا من شأنه أن يعمق الكرهية فيما بينهم - فلم يطلب الفرس من المصريين اعتناق دياناتهم وعبادة النار ، بل على العكس تركوهم وشأنهم فى ديانتهم وأطلقوا لهم الحرية الدينية ، فرغبة الشعب المصرى فى الحرية الدينية كانت هى القضية الأولى والرئيسية والأساسية لهم والتى من أجلها لاقوا العذاب وتجاوزت طاقة البشر ، وإستمر عذاب المصريين لستة قرون . وهذا مما دفع بالبطريرك المصرى نفسة الأنبا بنيامين بابا الكرسى البابوى أن يكون قدوة للشعب المصرى ويرفض أى تعاليم تتعارض مع التعاليم الدينية القومية المصرية ،

وهذا مما دفع الوالىالمعين من قبل الإمبراطور هرقل – كيروس أو قيرس أو كما يسمى فى كتب التراث العربية المقوقس – إلى اضطهاده .

حتى رأى حياته فى خطر وقيل إن ملاك الرب تراءى له وقال له اهرب انت ومن معك من هنا لأن شدائد عظيمة ستنزل عليكم ولكن لايستمر هذا الجهاد سوى عشر سنين (٤) .

فكتب منشورا إلى سائر الأساقفة فى أقاليم مصر ينصحهم فيه أن يختفوا من وجه التجربة الآتية عليهم ، وجمع كهنة الإسكندرية وأوصاهم بالسهر على الرعبة ثم خرج عن طريق مريوط ماشيا على رجليه ليلا ، ومعه اثنان من تلاميذه حتى وصل إلى أسقيا القديس مكاريوس ، وكان هذا عقب الخراب الذى دهم هذه البرية من قوات الجيش الفارسى ، فلم يجد فيها إلا نفرا قليلا فتركهم وانصرف إلى الصعيد ، وسكن هناك فى بلاد تيباس واختفى فى دير صغير حتى تمت السنوات العشر ، وهكذا استمر البطريرك المصرى هاربا لفترة زادت على السنوات العشر خوفا ورعبا من القهر البيزنطى الذى استمر أعوام ، وهدم الكنائس والأديرة ناهبا ما فيها من ذهب وفضة وثروات وجواهر وتحف وأن الأديرة التى تلقب بخربة الفرس ماهى الا معنى من تخريب الفرس لها ... مثل دير الزجاج .

ويبدو أن ذاكرة الروم كانت ماتزال تحتفظ بذكريات بغيضة للمصريين وتعاونهم الماضى مع

الفرس خلال السنوات القلية الماضية - إبان الاحتلال الفارسى - وعدم تعاونهم معهم - أو حتى إظهار أى تعاون لمقاومة غزو الجيش الفارسى لمصر ، بل يبدو أن الروم كانوا على قناعة بأن مصر قدمت كل مساعدة للفرس وتعاونت مع هذا الاحتلال - وهذه الذكريات كانت تبدد مستقبل قيام أية علاقة ود جديدة بين الروم والمصريين ، وتقف حجر عثرة فى طريق تحسين العلاقة بين الشعب المغلوب على أمره ، والمستعمر الذى يعانى من عقدة الذنب - فان هؤلاء المصريون أصدقاء اليوم هم أنفسهم كانوا بالأمس أصدقاء الفرس الأعداء التقليديين للروم ، وزادت أزمة عدم الثقة حتى انقلبت إلى كراهية حادة بين المصريين والروم . وزادت القيود المفروضة على المصريين وزادت الرقابة وكبت الحريات وتضاعفت الضرائب لتعويض سنى الكساد وأيضا كانوا يلاحقون الشعب المصرى بتكاليف حربين :-

الحرب الاولى هزم فيها الروم وانتصر فيها الفرس ، والحرب الثانية التى هزم فيها الفرس وانتصر فيها الروم ، وكان من أثر هذه الحروب المستمرة وروح العداء للقوات المستعمرة فرسا كانوا أوبيزنطيين من جراء هذه كله ترك الفلاحون المصريون أراضيهم ، وترك التجار تجارتهم وزادت موجة الرهبنة - وتضاعفت موجات هجرة الشباب إلى الصحراء حيث الأديرة والكنائس والقلايات ، وكان أيضا للخلاف

المذهبى دوره فى إشغال جذوة الكراهية ، ومازالت ذاكرة الشعب المصرى تتذكر القهر والظلم وصور التعذيب العديدة التى لاقوها من أجل اعتناق عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح ، هذا بخلاف ماجاء فى عقيدة الملكانيين وهو مذهب الإمبراطور (مذهب الطبيعتين للمسيح) إلا أن اللاهوت والناسوت اتحدا اتحادا تاما وكان هذا هوالمذهب المونوفستى(MONOPHYSTY) الذى جعل للمسيح طبيعة واحدة لها صفات وخصائص الطبيعتين . فاللاهوت والناسوت متحدان فيه اتحادا تاما فى الجوهر وفى الأقنوم وفى الطبيعة ، ليس هناك انفصال بين اللاهوت والناسوت فى المسيح بعكس عقيدة الروم المستعمرين الذين يتبعون مذهب الطبيعتين ، وهم أتباع مدرسة أنطاكية اللاهوتية ، وهو المذهب الذى يتبعه الإمبراطور وحاشيته وأتباعه ، لذلك كان الخلاف المذهبى يرتبط باختلاف القومية فكان المصريون ، يعتبرون المذهب اليعقوبى جزاء لايتجزأ من القومية المصرية وكذلك المذهب الملكانى جزء لايتجزاء من القومية الرومية (البيزنطية) وهكذا كان العداء القومى مزدوج الصيغة ، قوميا فى أساسة الوطنى دينيا عقائديا فى منطقه الجدلى الفلسفى .

في هذا الجو الصاخب بالغيوم ، المعقد والذى تصبغة صبغة الظلم الجائر للمصريين الرهبان الهاربين والقساوسة الشاردين خلال الحكم الفارسى . ومن بعده ، حكم الروم للمرة الثانية ، عين هرقل أساقفة (ملكانية)

خلقدونية فى بلاد مصر كلها إلى أنصنا وكان يعذب الأرثوذكس اليعاقبة المصريين ويطاردهم هم وأهلهم ورعاياهم ويضطهدهم ويذلهم ويغتصب كنائسهم ويسلب منازلهم وهم صاغرون ويفتك بهم ، وهم صابرون بدون أن يتبصر فى عواقب الأمور حتى أشرفت مملكة الروم على الهلاك ، وأصبحت فى حالة انحطاط زائد بسبب التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية ، وفى هذه الأثناء هرب البطريرك المصرى البابا بنيامين كما جاء ذكر ذلك من قبل واستمر مختبئا فى أقاصى الصعيد ، لاأحد يعرف أين هو إلا خاصة خاصته ومضت عشرة أعوام فى فترة الحكم البيزنطى ، كانت كلها أيضا ظلم وتخريب ، وتقتيل وتعذيب واضطهاد دينى وسياسى وقومى كما نوهنا من قبل .

وهكذا عادت سلطة الروم إلىمصر فى وقت بلغ فيه سخط المصريين عليهم أشده لما رأوا أن الملوك كانوا يرون شغلهم الوحيد هو إرغامهم للمصريين على اعتناقهم عقيدة مجمع خلقدونيه ، ولكن هؤلاء لم يغفلوا عن هذا تثبتوا فى مبادئهم وحفاظوا على لغتهم ، وعلى شريعتهم الدينية وترجموا جميع تعاليم الديانة إلى لغتهم ولايخفى أن ذلك جمع كلمتهم وقوى عرى اتحادهم فقويت شوكتهم وثار فى خاطرهم أمر الاستقلال ، ولهذا السبب كثرت القلاقل فى البلاد وضعفت الحكومة الرومانية فى عيون المصرين لاسيما أنهم كانوا ينتظرون مشاهدة قرب سقوطها ، وما كان يتهددها من

كل الجهات ، فاستعمل الولاة والحكام العنف والقوة في تنفيذ أغراضهم فكان هذا داعيا إلى انقلاب الأهالي على الحكام وتعديهم عليهم والسعي في إخراجهم ، وكان هذا قدر الله سبحانه وتعالى لتكون مصر مهيأة لاستقبال عمرو ابن العاص ، مخلصا ومحررا للشعب المصري ومعه أصحابه الذين استطاعوا أن يؤلفوا قلوب المصريين على قلب رجل واحد استقبل وتفهم الدين الجديد وسماحته ، بفضل ما حمله من مثل عليا وقيم رفيعة في السلام والأخوة والعدالة والمساوة .

وهذا ما سوف نطالعه في الفصول التالية – مع ظهور الإسلام ثم كيف تم تحرير القبائل العربية في الحجاز وتهامه والسواحل وعمان واليمن ومن بعد بلاد الشام وفلسطين والاردن ولبنان ... وسوريا ومصر أيضا ...

هوامش الفصل الثامن

١ – د. حنين ربيع – البيزنطين
٢ – القس منسى متى – تاريخ الكنيسة القبطية (ص ٣٠٣ وما بعدها)
٣ – المصدر السابق (ص ٣٠٤ وما بعدها)
٤ – القس منسى متى – تاريخ الكنيسة القبطية – مكتبة المحبة (ص ٣٠٤ وما بعدها)

الفصل التاسع

ظهـــور الإســـــلام

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط :

سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولانشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون .

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

ظهـــــور الإســــــلام

على الجـانب الآخـر هنـاك فـى الجزيـرة العربيـة كانت أحداث جسام ، أهمها ظهور دعوة جديدة لم يسـبق للعرب عهد بمثلهـا مـن قبـل ، وكـان ظهورهـا علـى يـد رجل أمى بسيط للغاية من أشرف بيوتـات قبـائل قريـش هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب (صلى الله عليه وسلم) ، هـذا الرجل كان منذ نعومة أظافره محبوبـا هاشـا باشـا ودودا رحيما عطوفا على الصغير وعلى العجائز شريفا طاهرا مشهورا عنه ومشـهودا لـه بالوداعـة والصـدق والأمانـة وكان ملقبا لدى الجميع بالصادق الأمين .

إلى أن نزل عليه الوحـى فـى عـام ٦١٠ ميلاديـة أى قبل الهجرة باثنى عشر عاما – مـن مكـة إلى المدينـة

وذلك فى عام ٦٢٢ ميلادية - وهذه كانت السنوات الحاسمة فى تاريخ البشرية ، والتى تعتبر نقطة تحول فى تاريخ الإنسانية ، وأضافت إلى نور المسيحية نورا فوق نور ، وتلاشت مساحات الظلمات ، التى كانت تغطى مساحات واسعة من العالم .....

وهكذا ظهر الإسلام بين العرب فى جزيرتهم ، وكانوا يعيشون حياة قبلية رعوية بين شقى أكبر إمبراطوريتين فى ذلك الوقت هما الإمبراطورية الفارسية فى الشمال الشرقى (الكويت - العراق - وايران - ومابعدها) والإمبراطورية البيزنطية فى الشمال الغربى (فلسطين - ولبنان - والاردن - وسوريا - وما بعدها فى الشمال الغربى ومصر وما بعد ذلك فى الغرب) .

وكان الإسلام بدعوتة الحكيمة قد استطاع فى أقل من ربع قرن أن يوحد بين العرب ، ويجعل منهم قوة استطاعت أن تهزم الفرس والروم ، وينتشر الإسلام فى أنحاء العالم المعروف حينذاك .

خرج العرب المسلمون من جزيرتهم يحملون رسالة عالمية يخرجون بها العالم من الظلمات إلى النور ، محررين الشعوب المستضعفة المغلوبة على أمرها ويؤدبون بسيوفهم الأكاسرة والقياصرة وكل من صغر خدة من الجبابرة ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة ، ومن جور اضطهاد الأديان والظلام إلى عدل الإسلام .

بعقيدتهم التى تتسع للروح والمادة ، والحق والقوة ، والدين والعلم ، والدنيا والآخرة ، إنها عقيدة التوحيد التى تغرس فى النفس الكرامة والحرية وتجعل الخضوع لغير الله كفرا وفسقا وظلما وتأبى على الناس أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله ، وبهذه العقيدة تحولوا من رعاة غنم إلى رعاة أمم ، تجلى كل ذلك بعد هجرة الرسول وصحبه من مكة إلىالمدينة تظللهم راية الحب والتعاطف وجميع الأخلاق الفاضلة التى جاءهم بها الإسلام ، وضربوا أروع الأمثلة فى التكافل والتكامل والبر والرحمة .

بدلا من النزاع القبلى والفوضى التى عاش عليها العرب منعزلين فى جزيرتهم قرونا طويلة . إلا من رحلات التجارة التقليدية .

فكان الإسلام لهؤلاء هو الملاذ ، وطوق النجاة من هذا المستنقع وضرب المسلمون أروع الأمثلة فى الايثار والقدوة الحسنة والفضائل الجمة ... الخ .

وهكذا سار المسلمون الأوائل على أساس دستور إلهى محكم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم وتنزيل من حكيم حميد

واستطاع الإسلام بكل ما احتواة من ثراء روحى وفكرى واجتماعى أن يخلف حضارة عظيمة فكرية ومادية ، وتمثلت فى ذلك التراث العظيم من علوم الدين التفسير والتشريع والحديث واللغة والأدب ونظم الحكم والعلوم التجريبية ، وقام بهذه الحضارة الإسلامية أجيال

من العلماء والمفكرين ترجموا ونقلوا من الحضارات القديمة ثم شرحوها وأضافوا إليها الكثير من حضارة الإسلام وتعاليمه .... ثم قدموها للناس وأعادوا صياغة المنهج العلمى الاستقرائى وحولوه من الاتجاه التأملى الذى وضعه فلاسفة الإغريق إلى الاتجاة الواقعي ، مما جعل أوروبا تنهل من الحضارة الإسلامية وفكرها - فيما بعد .

وفى الوقت الذى كانت الجزيرة تتهيأ للانطلاق بالفكر الجديد والعقيدة الجديدة والرسالة المحمدية ، كان النزاع البيزنطى الفارسى فى طريقة للانتهاء حيث هزم الفرس وطلبوا الصلح ، واسترد الروم الأقاليم التى فقدوها ومنها بالطبع مصر كما جاء ذكر ذلك فى الفصل السابق ، كان انتصار الروم على الفرس تأكيدا لبشرى القرآن الكريم فى سورة الروم :

"الم غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم"

صدق الله العظيم

كان الرسول عليه الصلاة والسلام يهيئ نفسه لدعوة الأمم المجاورة لاعتناق الإسلام والإيمان بالرسالة المحمدية وذلك بعد أن تم نشر الإسلام بالجزيرة العربية وأطرافها .

ففى شهر ذى الحجة سنة ست من الهجرة إبريل ٦٢٨ م على إثر خروج الفرس من مصر والشام . بعث الرسول صلى الله عليه وسلم رسلا من أصحابه إلى ملوك وأمراء الدول المجاورة ويحملون كتبا تدعو للإسلام ، فبعث دحية بن خليفة الكلبى إلى هرقل فلقيه فى بصرى بالشام ، وقيل فى بيت المقدس ، ويقال إن هرقل رد على الرسالة ردا حسنا ، وقال لحامل الرسالة عندما يسلم به أقرب الناس إليه نرى رأينا .

كذلك بعث الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا إلى المقوقس وهو كيروس أو قيرس عظيم القبط وحاكم الإسكندرية ووالى مصر ، مع الصحابى خاطب بن أبى بلتعة اللخمى

بسم الله الرحمن الرحيم

"من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط "سلام على من إتبع الهدى ، أما بعد فإنى ادعوك بدعاية الإسلام فإسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين ، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . فأن تولوا فقولوا إشهدوا بأنا مسلمون"

محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

واستقبل المقوقس رسول النبى صلى الله عليه وسلم استقبالا مناسبا ، وتجاذبا فى فحوى الرسالة ، وسأله عن الدعوة وصاحبها محمد (صلى الله عليه وسلم) . وانتهت زيارة

حاطب لمصر بوداع مناسب مصحوبا بهدية عبارة عن جاريتين وبعض خيرات مصر ، والجاريتان شقيقتان مارية وسيرين وقبل الرسول هذه الهدية وتزوج مارية وأنجب منها ولدا وحيدا هو إبراهيم .

ويبدو أن البيزنطيين نظروا إلىالإسلام نظرة خاطئة على أساس أنه مذهب شبيه بمذهب آريوس ، أو مذهب مثل المذهب الموتنوفيزتي المنتشرين فى مصر والشام ، ولم يدركوا وقتذاك أن هناك عقيدة جديدة ظهرت في الجزيرة العربية ، وأن الإسلام لم يكن لفئة من الفئات أو لجماعة من الجماعات ولم يأت لجنس من الأجناس أو لطبقة من الطبقات ، وإنما الإسلام كان دعوة للإنسان فى كل زمان ومكان . (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا صدق الله والعظيم) فالإسلام رسالة عالمية ووحدة للبشرية من منطلق مكارم الأخلاق ، وقدوه صاحب الدعوة ، فكان عليه الصلاة والسلام قدوه فى الصدق والامانة والرحمة وكان حملة الرسالة يحملون دعوة مكارم الاخلاق واسقاط البغاة ، وتحرير الشعوب التى استعبدت قرونا طويلة ، والقضاء على النظم الظالمة ، وفرض نظام سماوى محكم مبنى على الأخلاق والمساواة وتحرير الروح والبدن ، ولذلك كانت المواجهة ضروية ، والجهاد ضرورى من أجل تحرير الشعوب المستعبدة ، وإزالة العوائق التى حالت دون نشر الدعوة بالطريق السلمى ، فالحماسة الدينية من أجل صدق العقيدة ، دفعت المسلمين الأوائل إلى أن يحملوا

رسالة الإسلام معهم إلى شعوب البلاد التى حرروها ، لأنه كان عليهم تبليغ الدعوة ودوافعها وألوان نشاطها . وهناك عوامل عديدة ساعدت المسلمين الأوائل فيما بعد على تحقيق أهدافهم فيما بين جبال كول لن على حدود الصين ، وجبال البرانس على حدود فرنسا ، تصدوا لأعظم قوتين وقتذاك الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية هى مستوى القرن السابع الميلادى .

وحقيقة الأمر أن سلاحهم كان - فى هذه المواجهات العديدة بالدرجة الأولى - القيم الخلقية والدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والحث على الصفات والأخلاق الفاضلة والسجايا الحميدة من عدل ورحمة وشجاعة وبذل وتضحية ، والجهاد فى سبيل نشر هذا الدين الجديد الذى أخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور ، وأدت هذه المواجهة والصراع بين الحق والباطل إلى انهيار إمبراطورتى الروم والفرس والحق أن قدوة قادة السرايا والجيوش ، كانت خير سفير يستبقهم لكل الوديان التى سلكوها والجبال والهضبات التى صعدوها والمناطق التى بشروا فيها بالعقيدة الفطرية التى بشروا بها وفى عام الهجرية (٦٢٩ ميلاديه) فوجئ الروم وذلك على إثر انتصارهم على الفرس - بخبر قرب وصول جيش المسلمين الذى أرسله الرسول صلى الله عليه وسلم بقيادة زيد بن حارثة الكلبى إلى مؤته فى فلسطين جنوب البحر الميت ، وكان عدد

المسلمين حوالى ثلاثة آلاف بينما كان عدد الروم أضعاف هذا العدد . ولما نزل المسلمون معان وهى مدينة فى الأردن حاليا لتدارس الموقف ، خطب فيهم الصحابى الجليل عبد الله بن رواحة قائلا (يا قوم والله إن الذين تكرهون للذين خرجتم تطلبون منه الشهادة ، وما نقاتل الناس بعدد ولاقوة ولا كثرة . ما نقاتلهم الا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به . فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين اما الظهور واما الشهادة) . وكان لابد لحماية هذا النظام وحماية الشعوب التى ارتضت هذا الحكم الجديد من منظومة كاملة على رأسها الأخلاق والحب ، والإدارة بدورها كانت تحتاج إلى نظام ضرائب وتمويل - لحماية هذه الإدارات واستقرارها وكان نظام الضرائب ما هو الا امتداد متطور لنظام الجزية قبل دخول الإسلام مصر فى العصر البيزنطى والاستعمار الفارسى والاستعمار البيزنطى الثانى وفى معركة مؤتة تأكد للروم أن هذه القوة الجديدة التى خرجت من شبه جزيرة العرب لم تكن مجرد غارة من غارات البدو تبغى السلب والنهب والتى كانت منتشرة فى هذه الفترة من تاريخ الإنسانية ، حيث يفتقد الأمن والأمان والاستقرار ، وكثر الغارات المستمرة على قوافل التجارة ، وتنتشر الإغارة على القبائل والبلاد من أجل خطف النساء والأطفال والشباب .

فى السنة التاسعة من الهجرة (٦٣٠ م) وهى السنة التالية لغزوة مؤتة ، أمر الرسول (صلى الله عليه وسلم)

بالتأهب لغزو الروم وكان هذا العام شديد الحرارة ، والأراضي مجدبه ، وكان هذا العام عام عسرة ، ولذلك سمي الجيش بجيش العسرة ، وقاد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بنفسه حملة إلى تبوك ، وكانت هذه الحملة أشبه بمناورة حربية في الأراضي المتاخمة للإمبراطورية الرومانية ، وكانت هذه الحمله بمثابة تأمين حدود الحجاز الشمالية ، وتم إرسال سرايا الاستطلاع إلى الجهات المحيطة بتبوك ، ثم عاد الجيش إلى المدينة بعد أن أقام في تبوك عدة أيام ، وكان هذا التحرك بمثابة التجهيز للدعوة الإسلامية في الشام ، ومبعث الطمأنينة إلى قلوب المسلمين – وبأن مملكة الروم آن لها أن تزول في مواجهة المد الإسلامي ، وأنها غدت مؤهلة لان تتحرر شعوبها من نير ظلم الاستعمار ، وأيضا شعوبها جاهزة لاستقبال جيش التحرير ، هذا وفي هذه الغضون كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) (١) قد سبق ووجه رسالتة الشهيرة إلى المقوقس وهو قبرس أو كيرس الرومي عظيم القبط او كبير المصريين ، وفي ذلك يقول ابن الحكم لما كانت سنة ست من الهجرة ورجع الرسول (عليه الصلاة والسلام) من الحديبية بعث برسائل إلى الملوك فمضى حاطب بن أبي بلتعة بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إلى مصر فلما انتهى إلى الإسكندرية وجد المقوقس (كيرس) في مجلس مشرف على البحر ، فركب البحر فلما حاذى مجلسه أشار بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين

أصبعية ، فلما رآه أمر بالكتاب فقبض وأمر به فأوصل إليه فلما قرأ الكتاب قال ما منعه إن كان نبيا أن يدعو علي فيسلط علي فقال له حاطب من منع عيسى بن مريم أن يدعو على من أبى عليه ، أن يفعل به ويفعل ، فوجم ساعة (أى صمت برهة قد تكون طويلة) - ثم استعادها فأعادها عليه حاطب فسكت فقال له حاطب أنه قد كان قبلك رجل زعم أنه الرب الأعلى فانتقم الله به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا تعتبر بك وإن لك دينا لن تدعة إلا لما هو خير منه وهو الإسلام الذى بشر به عيسى وما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا - إياك إلى القرآن الا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكن نأمرك به . ثم قرأ الكتاب (**بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم القبط سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام فاسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولايتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**) فلما قراه اخذه فجعله فى حق من عاج وختم عليه (٢) .

وعن إيان بن صالح قال أرسل المقوقس (٣) إلى حاطب فقال له ألا تخبرنى عن أمور أسألك عنها فإنى أعلم أن صاحبك قد تخيرك حين بعثك ، قلت لا تسألنى عن شئ إلا صدقتك قال : إلى ما يدعو محمد ؟ قال :

إلى أن تعبد الله ولاتشرك به شيئا وتخلع ما سواه ويأمر بالصلاة . قال فكم تصلون ؟ قال : خمس صلوات فى اليوم والليلة وصيام شهر رمضان وحج البيت والوفاء بالعهد وينهى عن أكل الميتة والدم قال : من أتباعه ؟

قال : الفتيان من قومه وغيرهم

قال : وهل يقبل قوله ؟

قال : نعم

قال : صفه لى

قال : فوصفه ببعض صفاته ولم يأت عليها كلها ؟

قال : قد بقيت أشياء لم أرك ذكرتها - فى عينيه حمرة قل ما تفارقه وبين كتفيه خاتم النبوة ؟ يركب الحمار ؟ ويلبس الشملة ويغتذى بالتمرات والكسر ؟ ولا يبالى من لاقى من عم ولا ابن عم ؟

قلت : هذه صفته قال قد كنت أعلم أن نبيا بقى وقد كنت أظن أن يخرجه من الشام وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله فأراه قد خرج من أرض العرب "من أرض جهد وبؤس والقبط (المصريون) لاتطاوعنى فى اتباعه ولا أحب أن تعلم بمعاورتى ؟ اياك وسيظهر على البلاد ويترك أصحابه من بعده بساحتنا هذه حتى الظهور على ماهاهنا وأنا لا أذكر للقبط من هذا حرف ، فارجع إلى صاحبك ، قال ثم دعى كاتبا يكتب العربية فكتب : (لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط ، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت وما تدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظن أن نبيا يخرج بالشام

وقد أكرمت رسولك وبعثت إليك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبكسوة ، وأهديت إليك بغلة لتركبها والسلام (٤) .

وعن عبد الرحمن بن عبدُ القادر قال لما مضى حاطب بكتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قبل المقوقس الكتاب وأكرم حاطب وأحسن منزله ثم شرحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وأهدى له كسوة وبغله بسرجها ، وجاريتين إحداهما ماريا (أم إبراهيم) ووهب الأخرى واسمها سيرين) لجهم بن قيس العبيدى فهى أم زكريا بن جهم الذى كان خليفة عمرو بن العاص وكان واليا على جنوب مصر ، وكانت فترة ولايته كلها حب ووئام بين المصريين ، المسلمين والأقباط – المسيحيين – وكان ودودا مع أخواله فى صعيد مصر – وعلى ما يبدو أن منطقة إسنا اعتنقت الإسلام فى حينه .

وعن يزيد بن أبى حبيب أن المقوقس لما أتاة كتاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ضمه إلى صدرة وقال هذا زمان يخرج فيه النبى نجد نعته وصفته فى كتاب الله تعالى وأنا منجد صفته أنه لا يجمع بين أختين فى ملك يمين ولانكاح وأنه يقبل الهدية ولا يقبل الصدقه وأن جلساءه المساكين وأن خاتم النبوة بين كتفيه ، ثم دعا رجلا عاملا ثم لم يدع بمصر أحسن ولا أجمل من ماريا واختها وهما من أهل جفن من أقليم أنصتا (منطقة إسنا الحالية) .

كما أهدى إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم) علاوة على الجاريتين بغلة بيضاء وحمار أبيض وثيابا من مصر ، وقدور عسل وفى قول آخر أنه هدية المقوقس كانت أربع جوار وثيابا وعسلا ، وخصيا وبغلا كان يسمى (دلدل) وحمارا كان يسمى (يعفور) وقدحا من زجاج ، يقال أنهما جاريتان ولكل جارية من تخدمها ، وقبل الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الهدايا ، وتزوج من إحدى الجاريتين وهى السيدة مارية المصرية وأنجب منها ابنه الوحيد إبراهيم ووهب شقيقتها سرين للشاعر حسان بن ثابت وبعده تزوجت من جهم بين قيس العبيدى فى مرحله لاحقة - ورزقا بابن سمياه - زكريا والى مصر فيما بعد ، وهكذا كانت علاقات الود بين الرسول وكبير أقباط مصر والتى ظهرت خلال الرسائل المتبادلة . وكان انتصار الروم على الفرس الذى ذكرناه فيما سبق مواكبا لانتشار الإسلام فى الجزيرة العربية ، وبدأ التطلع إلى المد الإسلامى وخصوصا بعد الرسائل التى بعثها الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلى حكام العالم .

وكما جاء ذكر ذلك من قبل البيزنطيين نظرو إلى الإسلام على أنه مذهب شبيه بمذهب آريوس - فكلاهما أى الإسلام والآريوسيه ينادى بوحدانية الله وينكر صفة الألوهية عن السيد المسيح واعتقدوا أنه مذهب من مذاهب المسيحية مثل العقيدة المونوفيزتية عقيدة الطبيعة الواحدة المنتشرة في مصر والشام وفلسطين حينذاك (٥) ، ولم يدرك البيزنطيون وقتذاك أن هناك عقيدة جديدة

ظهرت فى الجزيرة العربية ، وأن الإسلام لم يبعث لجنس معين أو طبقة بذاتها أو فئة بنوعها ولكن الإسلام جاء للبشر كافة وكما جاء فى الكتاب المحكم بسم الله الرحمن الرحيم وما أرسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا (صدق الله العظيم) .

وهكذا لم يكن هدف الإسلام سعيا أو استعماريا بل على العكس هو تحرير الشعوب من الاستعمار الذى تعانى منه شعوب الأرض إن كانت شعوبا تحت الحكم البيزنطى والرومانى أو شعوبا تحت الحكم الفارسى ، وإسقاط نظم البغاة التى طالما استعبدات الإنسان أحقابا من الزمن.

ولكن كان الهدف هو التبشير بنظام جديد يقوم على أساس تشريع سماوى محكم قائم على المساواة وتحرير الروح والجسد ، ولهذا كان الجهاد فى الإسلام يهدف إلى تحرير الشعوب المستعبدة والمقهورة ... وسوف نطالع في الأوراق التاليهة العلاقة بين الإسلام والإمبراطورية البيزنطية . وفى هذا الصدد يقول الدكتور الفريد بتلر : كانت بلاد العرب قد سارت يدا واحدة قبل موت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد انقطع بسقوط كسرى ما كان بين الفرس واليمن ، وجنوب أرض العرب من علاقة السلطان ، فى حين أن هرقل لم يعمل على تقوية سلطانه وتحديده فى شمال الجزيرة بل تركه كما هو ظلا غير حقيقى من الهيبه ، ولا شك فى أن كل نصارى العرب كانوا على المذهب

(المونوفيسى) الطبيعة الواحدة ، وأنهم لذلك كانوا لا يؤمنون برأى الإمبراطور فى السياسة والعقيدة ، على أنهم كانوا ضعفاء لا يستطيعون دفع أعداء الدولة (٦) .

وهكذا كان السبيل لدخول هؤلاء العرب النصارى الإسلام ، الضاربين على التخوم من غساسنة ومناذرة منهم ذوى قربى فالشبه كبير بينهم .

فما كان على المسلمين إلا أن (يسعون لضم) هؤلاء العرب فى الإسلام ، ويشعروا قلوبهم بعقيدتهم ، ويثيروا فيهم روحه فيصبح لهم مسلمة ، وكان كثير منهم يقاتلون مستميتين فى سبيل دولة الروم ودين المسيح . غير أنه قد كان منهم من آثر علاقة الجنس ، أو كان غير حريص على دين لم يفقه فيه ، فى حين أنه قد كانت منهم طائفة إنحازت على حذر ، فلم تكن مع هؤلاء ولا مع أولئك ، متربصة حتى يتبين لها عن الغلبه ، فتكون مع الظافر وهى آمنه ، ومهما يكن من الأمر فقد كانت صلة الجنس تجعل رجحان الميل إلى المسلمين (٧) .

ولعلنا نجد عذرا إذ نحن سقنا بعد ذلك رأيا آخر نمهد به مجملين ، وذلك أن فوز المسلمين كان له سبب آخر ألا وهو ما حل بالمسيحيين من الخذلان وهو يعدل فى شدتة ما كان عند المسلمين من إيمان وقوة ، قال "قيدرينوس" على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك ، ومن لم يخشون الله من القسوس ، خرج من الصحراء عملاق ليعاقبنا على ذنوبنا – هذه كلماته التى ذكر فيها نشأة الإسلام وهى كلمات قليلة ، ولكنها تدل على أن

المسيحيين كانوا يشعرون أن محمدا عليه الصلاة والسلام كان رسولا من الله ، أو هو على الاقل سوط من الله أرسله عليهم ، وهذا شعور يظهر على لسان كثير من كتبوا من المسيحيين فى ذلك الوقت ، أمثال (سيبوس) الأرمنى ، وفى هذا يعلق الدكتور الفريد بتلر باستغراب فى كتابه القيم فتح مصر على قول الأسقف "سيبوس" الأرمنى : فى ذلك الوقت ظهر رجل من ولد إسماعيل اسمة محمد كان تاجرا ، وقال للناس إن الله أرسله بدعوة الحق – ولما كانت الدعوة من الله اجتمع الناس بأمرة ، ودانوا لشريعتة ، وهجروا عبادة الأوثان الباطله وتابوا إلى الله الحى القيوم الذى ظهر لأبيهم إبراهيم ، وقد أمراهم محمد أن لايأكلوا الموقوزة ولا يشربوا الخمر ولا يكذبوا ، ولا يزنوا ، والعجب أن "سيبوس" كان مسيحيا ، وكان فوق ذلك أسقفا (٨) ويستمر دكتور بيتلر – إنه لأمر معروف – أنه إذا نزلت بقوم نازلة من هزيمة قالوا إن ما أصابهم كان عقابا على ذنوبهم ، وإن من فكر وجد أن هذا القول لم يخطئ الصواب ، ولم يبعد عن الحقيقة ، ولكن يوحى لنا أن فى قول هؤلاء الكتاب شيئا من الحزن المبرح أكثر مما نراه فى مثل هذه الأحوال ، فإنهم يحسبون أن النصارى قد وزنوا والعرب فى كفتين ، فرجح العرب ومالت كفتهم ، وأن المسيحين قد أصبحوا غير جديرين ، فإن يكونوا دون غيرهم هداه للناس إلى سبيل الله – وليس من العسير أن ندرك كيف إزداد الإسلام قوة ، بما وقع

فى قلوب المسيحيين من هذا الخوف - وتوقع البلاء ، فقد كان قسوسهم وجندهم فى ذلك سواء وقد كان "لوقا" الذى أسلم مدينة حلب بأسوارها للعرب ممتلئ القلب بما كان يبشر به قسيس من أنه كان محتما أن يفتح العرب البلاد ، وكان بازل الذى أسلم أيضا من مدينة صور قد أخذ عن الراهب " بحيرى" مما جعله يترك الروم ويوصى أهل الدولة الرومانية بدين الإسلام ، وهاتان الروايتان ، قد جاءتا عن طريق العرب ، وقد تكونان هما وأمثالهما أقاصيص وهمية لا حقيقة لها ؟ ولكنهما تدلان على أمر واحد لاشك فيه ولا يكذبه التاريخ ، وذلك أنه قد شاعت نبوءة بين بعض المسيحيين فارتجفت لها أفئدتهم ، وهى أن الإسلام حق ونصرة محقق .

هوامش الفصل التاسع

١ – د. حنين ربيع – تاريخ الدولة البيزنطية – دار النهضة العربية (ص ٦٧)
٢ – المقريزى – المواعظ والاعنبار – الحزء الأول (ص ٢٩)
٣ – القس
٤ – القس منسى متى – تاريخ الكنيسة القبطية (ص ٣٠٦)
٥ – حسنين ربيع – تاريخ العصور الوسطى – (ص٦٥)
٦ – د. الفريد بتلر – فتح مصر (ص ١٨٢)
٧ – نفس المصدر السابق (ص ١٨٧)
٨ – د. الفريد بتلر – فتح مصر (ص ١٨٧ وما بعدها)

الفصل العاشر

الإسلام والإمبراطورية البيزنطية

بسم الله الرحمن الرحيم
هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل ايلياء "القدس" الامان ، اعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ، ولا من صليبهم ، ولا من شئ من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ....

عمر بن الخطاب

الإسلام والإمبراطورية البيـزنطيـة

كـانت، نفـوس المسـلمين القـادمين إلـى الشـام وفلسطين تهفو إلى تحرير هذه الشـعوب مـن الاضطهـاد وذل العيش الذى يعانونه . وهكذا كانت رسالتهم تتفق مع روح بشارة الرسول (عليه الصلاة والسلام) . فـى رفـع الأذى ؟ عن الأريسيين من الاضطهاد الروم لهم ، كمـا جـاء فـى رسـالة النبـى (صلى الله عليه وسلم) إلـى هرقـل فـى تحملـه مسئوليتهم ومسئوليه اضطهادهم ورفـع الأذى عنهـم ، وتوحى الرسالة بأن الأريسيين يعتنقون مذهب يتفق إلـى حد ما مع الإسلام فى جوهره وكما جاء ذلك عجالـة فـى الفصل السابق ، وها هى نص رسالته إلـى **هرقـل ملـك الروم :**

(إلى هرقل ملك الروم . بسم الله الرحمن الرحيم سلام على من اتبع الهدى .. أما بعد . فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين فان توليت عليكم إثم الأريسيين يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء .... الخ .

محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

وكانت فلسطين والشام وتخومهما غاصة بالغساسنة وهم عرب بنى غسان الذين أظهروا الود لبنى عمومتهم وإخوانهم العرب القادمين ، يحملون هذا الدين الجديد ، ومن ناحية أخرى كان قدوم هؤلاء بمثابة تخليص لهم من ظلم الاستعمار البيزنطى ، وكان هؤلاء العرب من سكان الشام وفلسطين مسيحيين على مذهب الإمبراطور المذهب الملكانى وهم كارهون . والبعض الآخر يعتنقون مذهب آريوس ، ويظهرون فى الغالب الأعم عقيدة الإمبراطور ويحتفظون فى صدورهم بعقيدتهم ، وما لبثوا أن وجدوا فى الإسلام مايعبر عما فى صدورهم حتى أقبلوا عليه ، بقلوب مفعمة بالإيمان ، والتوجه إلى العقيدة الإسلامية ، فوجدوا فيها ملاذهم ، وما افتقدوه خلال النظريات والقوانين التى وضعها الكهان والبطاركة والقساوسة فى اللاهوت والناسوت عبر اجتماعات المجامع المسكونية - العاصفة- المشحونة بالحقد والكراهية والتعصب وكانوا بدورهم يتمزقون فيما بين اللاهوت والناسوت من ناحية ومن

ناحية أخرى فيما بين قانون الإيمان والمذاهب العديدة – المتضاربه فيما بين الطبيعة الواحدة للإله والطبيعتين أو قانون الإرادة الواحدة والإرادتين أو المشيئة الواحدة والمشيئتين ... إجمالا فيما بين عقيدة اليعاقبة عقيدة الشعب المصرى وعقيدة الملكانية عقيدة الإمبراطور ، وليست المسافة بعيدة عن قصص الخلاف بين المطارنة فى مجمع نيقية أو أنطاكية أو القسطنطينية أو أفسوس أو خلقدونية . وما زالت أخبار هذه المجامع تتردد فى كل الأوساط الكهنوتية والدينية والسياسية والشعبية أيضا . فقد كان البسطاء فى فلسطين أو فى الشام تنتابهم حالة نفسية محطمة فالرؤية غير واضحة والضباب يملأ الساحة ، مشتتين فيما بين كنيسة انطاكية ، وكنيسة القسطنطينية وكنيسة روما وكنيسة الإسكندرية وما تعتنقه كل كنيسة من فكر وفلسفة ومذهب ...

وكانوا فى حيرة : إلى أى فرقة ينضمون ومع أى حزب ينحازون ، هذا بخلاف المذاهب غير المعلنة والكامنه فى الصدور مثل هؤلاء أتباع آريوس (الآريسيين) والذين جاء ذكرهم فى رسالة الرسول (صلى الله عليه وسلم إلى هرقل إمبراطور البيزنطية . وكان من الطبيعى فى هذا العصر ، وفى هذا المناخ كان من الحكمة ان يخفى الناس عقيدتهم خشية التعذيب ، ومع تعدد المذاهب والانشقاقات ، فإن الاستعمار البيزنطى لم يكن يفرق بين هذا وذاك فالتعذيب والاضطهاد ، كانا يعمان أنحاء الإمبراطورية ، وعموما

لم يكن حال المسيحيين فى الشام بأحسن من حال إخوانهم المسيحيين في مصر . فالاضطهاد كان سمة هذا العصر ، بسبب أزمة عدم الثقة من جانب الحكام الجبابرة وأعوانهم ، لا يفرقون بين فلسطيني أو شامى أو مصرى ....

وهكذا جاء الإسلام البسيط الفطرى الحنيف وخلصهم من حيرتهم ... وأنقذهم من عذاب واضطهاد الاستعمار البيزنطى ، ولا يخفى أن المنطقة كلها كانت تعيش فى قلق ، فكانت شعوب هذه المنطقة متعطشة للعدل والسلام والاستقرار فالاضطهاد ما زال يعم أراضى الإمبراطورية من ناحية ، من ناحية ثانية فالإمبراطور كان يسعى وكل همة هو توحيد المذاهب الدينية فى ظل وحده عسكرية وسياسية - كما سبق ذكره - عند الاشارة إلى الخلافات الدينية المذهبية بين مذهب الطبيعتين وهو مذهب الملكانى (مذهب خلقدونية) وبين مذهب الطبيعة الواحدة وهو مذهب المونوفيزقى الذى كان وقتذاك مذهب شعوب مصر وفلسطين والشام ، رغم أنف الدولة البيزنطية ورغم أنف الإمبراطور ، وكانت أصداء مناظرات القديس أثناسيوس وآريوس أقطاب كنيسة الاسكندرية ، مازالت أصداءها تترد فى كل منتدى كنسى أومجمع كهنوتى ، وأشهرها مجمع نيقية فى ١٩هاتور الموافق ٢٧ نوفمبر عام ٣٢٥ ميلادية (١) ... وذلك فى عهد الإمبراطور قسطنطين الكبير ... فقد خالف آريوس الكنيسة فى قضية ألوهية

السيد المسيح عليه السلام ، وتجرأ وجاهر بما آمن به وقال إن المسيح عليه السلام ليس إلها ونفى عنه وصفه بالألوهية ، ورفض التثليث ، وأن المسيح لا يساوى الله فى الجوهر ، وأن المسيح مخلوق بشر مثل سائر البشر ، وحجته فى ذلك أنه قبل ميلاد المسيح عليه السلام . كان الله موجودا لذلك ينكر آريوس ألوهية المسيح وهكذا كانت آراء أريوس ومريديه ، وأتباعة من المسيحيين الأوائل تقترب كثيرا من قول الإسلام فى السيد الميسح عليه السلام ...

وهيا عزيزى القارئ نغوص فى أوراق التاريخ لنعرف المزيد عن مجمع نيقية ، فقد كان هذا المؤتمر من فكر الإمبراطور قسطنطين الكبير (٢) .... اذ كانت الخلافات الكنسية بين العديد من المذاهب وصلت إلى طريق مسدود ، ، وكان فكر الإمبراطور من أجل راب الصدع فى الكنيسة ، والتى تعتبر أساس وحدة الإمبراطورية على حد تصور الإمبراطور والذى استخدم قوة الإمبراطورية وتصرف كرب أسرة - امبراطور وبابا - فى آن واحد ودعى هذا المجمع المسكونى - العالمى - الأول كل أساقفة الإمبراطورية البيزنطية ، وكان عددهم وقتذاك ٣١٨ أسقفا من كل أنحاء الإمبراطورية منهم بالطبع أساقفة الإسكندرية ورما وقرطاجنة وأنطاكية ونيقوميديا وجعلهم فى ضيافة الدولة ، ورأس الإمبراطور قسطنطين جلسات المجمع وفرض آراءة وتدخل ووجه قراراتة ، وشجع الأسقافة

على اعتناق مذهب الأغلبية اللاهوتية ، وبذلك أصبح الإمبراطور قسطنطين الكبير ، سيد الكنيسة المتحكم في شئونها مما كان له أثر كبير في تاريخ الكنيسة الشرقية وكان لإثناسيوس بطل كنيسة الإسكندرية وكان عمره وقتذاك التاسعة والعشرون دور هام في هذا المؤتمر (المجمع) ، فقد شرع إثناسيوس الذى أصبح فيما بعد أسقفا لكرسى البابوية بالإسكندرية ، شرح معنى الإيمان وقانون الإيمان وفق آراء آريوس فقد كان إثناسيوس له أغلبية الأساقفة ، واستمر اثناسيوس في خدمة كنيسة الإسكندرية إلى أن أسلم البابا الشيخ الوقور الأنبا الكسندورس روحه لبارئها وتسلم إثناسيوس مقاليد الكنيسة الأرثوزكسية بتوصية من البطريرك وباجماع كل الشماسة والكهنة والأساقفة وكانوا حوالى خمسين أسقفا واستمر الصراع بين الآريسيين أو الموحدين ضد أتباع القديس إثناسيوس ، وحاولوا إسقاط القديس إثناسيوس من كرسى البطريكية وإخراجه من بين رعيته بل ومن الشرق كله ، واستمر الصراع بين كل من الطائفتين ، بين قتل وتعذيب لكل من الطائفتين .

وهكذا كان لكل جماعة أنصارها ومريدوها وقوتها وإجمالا كانت كل الشعوب على اختلاف مذاهبها تجد صعوبة في فهم نقط الاتفاق والخلافات ومعرفة كنهها . إلى أن تغلب أنصار إثناسيوس على أنصار آريوس واستمرت العقيدة الآريوسية ، وكانت ومازالت حينذاك – يتردد صداها في حلقات الدراسة والمجامع

الدينية وأيضا مازالت فى قلوب بعض من القساوسة الآريوسيين وفى وجدان كثير من الشعب البسيط الفطرى .

ومرة ثانية أستسمحك عزيزى القارى أن ترجع إلى جبهة القتال بين جيوش الفتوحات الإسلامية ، لكى تتصور معى خريطة الشام ، وفى جنوبها فلسطين وهى من املاك دولة الروم وفى الشرق العراق ومن بعدها فارس .

وكانت تزحف على هذه المساحة خمسة جيوش - هناك فى الشرق خالد بن الوليد مكلفا بتحرير الشعوب التى ترزح تحت وطأة الحكم الفارسى .

وفى منطقة الأردن كان جيش الوليد بن عقبة وكان الجيش المعقود لواءة لابى عبيدة بن الجراح مسئولا عن تحرير الشام ومركزها حمص .

ويزيد بن سفيان كان مسئولا عن تحرير منطقة جنوب الشام ومركزها دمشق .

وكان جيش عمرو بن العاص مسئولا عن تحرير فلسطين ومركزها ايلياء (بيت المقدس) وهكذا كانت أربعة جيوش مسئولة عن تحرير الشام وفلسطين حتى جبال طوروس فى الشمال .

ناهيك عن جيش خالد بن الوليد فى أقصى الشرق فى العراق وما وراءه هكذا كانت قوات المسلمين متفرقة ولا تقول مشتتة ، وما كان الروم يلقوا هذه الجيوش المتفرقة وهم أشتات فجمعوا لهم جموعهم ، واستبد القلق

بالقوات الثلاثة فى الشام أبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبى سفيان والوليد بن عقبة ، ماذا يصنعون ؟ فكتبوا إلىالخليفة فى المدينة وإلىعمرو ابن العاص على مشارف فلسطين وبالتحديد فى المنطقة جنوب شرق القدس وشمال صحراء النقب ، يسألونهم الرأى ، وجاء الرأيان النائيان ، بنصيحة واحدة : هو أن يجتمع المسلمون بكل قوتهم فى مكان واحد ليلقوا جمع الروم ، وهم على قلب رجل واحد .

وكان عمرو بن العاص عالما بطبيعة البلاد ومواقعها وأيضا كان نافذ البصيرة وواعيا فى دراسة المسالك والطرق والمواقع ، وأيضا مدركا ومقدرا للمواقف ، فوقع اختياره على شاطئ نهر اليرموك حيث المراعى ، وذلك انتظارا لقدوم الروم فى أى وقت من الأوقات ، وأخذ القوات الثلاثة برأيه وأقاموا فى الموقع المختار .

وكان الخليفة أبو بكر قد أرسل إلى خالد بن الوليد أن يهب لنجدتهم ومساعدتهم ، فقطع صحراء الشام الشمالية ، وهى صحراء لم يجتازها جيش ضخم من قبل ، والتقت القوات على شاطئ اليرموك قبل لقاء الروم ، واجتمع بذلك جيش للمسلمين قوامه نحو خمسين ألف مقاتل فيما بين فارس وراجل فى مواجهة ما يقارب نصف مليون مقاتل هم جيش الروم .

وقاد خالد موقعة أجنادين التى أعقبت اجتماع اليرموك ، وهزم الروم بشجاعة منقطعة النظير يرجع

إليها الفضل فى انتصار الفئة القليلة المسلمة على الفئة الكبيرة من جيش الروم ، ثم انفرد عمرو بجيشه بعد ذلك فأتم فتح فلسطين وما حولها من التخوم المجاورة ، واستولى على الشواطئ والموانى وحاصر بيت المقدس وكانت وقتذاك عاصمة إقليم الشام كله ، وفيها هيكل سليمان ، وكان قائد حاميتها من أشهر قواد الروم ودهاتهم ، وهو أريطبون الذى كان العرب يطلقون عليه أرطبون ومن مزايا القائد الماهر وخصائصه أن يحكم الحصار ، وهو غريب عن هذه الديار ، إحكاما يرغم العدو على طلب التسليم ، وهذا ما فعله أريطيون بعد أن طال الحصار أربعة أشهر خرج فارا إلى مصر ، وترك بطريرك القدس يفاوض فى الصلح والتسلم حتى يصون المعابد والشعائر .

وإمعانا فى الاحتياط أصر على ألا يسلم العاصمة إلا للخليفة . - وكان الخليفة أبو بكر قد مات وتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب . فجاء عمروتسلم بيت المقدس . ونشير عزيزي القارئ مرة أخرى بنص وثيقة الأمان وذلك للتأكد على روح السماحة الإسلامية ، وقدوة الخليفة التى كانت مثلا يحتذى ... والتى كانت تغطى الآفاق وتنتشر على مساحة كل البلاد المحررة وشعوبها ....

ووقع الخليفة عمر بن الخطاب وثيقة الأمان وعهوده بنفسه بنصها الخالد

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل إيلياء (القدس) الأمان أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها . أنه لا تسكن كناسهم ولا تهدم ولا ينقص منها ولا من حيزها ولا من صليبهم ولا من شيئ من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء أن يعطو الجزية كما يعطى أهل المدائن) .

وكان عمرو بن العاص ممن شهدوا على هذه الوثيقة التى وقعها عمر الفاروق ، ودخل معه بيت المقدس وزار معه مزاراتها الشهيرة واستلم عمر مفاتيح كنيسة القيامة وزارها وعندما أذن لصلاة الظهر ، خرجا من الكنيسة وصلى عمر بن الخطاب ومن خلفه جموع المسلمين خارج كنيسة القيامة ، خشية التباس الأمر على المسلمين ، لكى لا تتحول الكنيسة إلى مسجد وذلك صيانة لحقوق المسيحيين وما تعاهد عليه معهم فى وثيقة الأمان التى شهد عليها عمرو بن العاص ضمن من شهدوا عليها ، وهكذا كان المجتمع والناس فى إيلياء (بيت المقدس) وما حولها يشهدون بساطة الخليفة عمر وعدله واحترامه للمقدسات ، وكيف كان يضع المواثيق والعهود ، لحماية حقوق المسيحيين ، وأعطاهم الأمان فى أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأن لا تهدم كنائسهم ولا ينقص منها ولا من حيزها ، ولا تساء

معاملتهم ولا يكرهون على دينهم ولايضار أحد من أهلها ، هكذا كان رحيما وكريما مع هؤلاء الرعايا الجدد ، وهكذا أمن عمر بن الخطاب أهل القدس ، وأيضا كل أهل فلسطين والشام .

وكانت هذه الأخبار تنتقل فى أنحاء المنطقة وتنتشر انتشار النار فى الهشيم مما جعل الكثير من هؤلاء المطحونين من أهل الشام يشتاقون للإسلام ويتوقون إليه ويحنون لمبادئة ، وكيف لا : والنماذج الحية للعدل والشجاعة والبساطة كانت أمامهم بين جند الإسلام قوادهم مثل عمرو بن العاص وعبيدة ويزيد ، فكان الشعب البسيط يسعى لاعتناق الدين الجديد والدخول فيه لمبادئه السمحة ، وكهذا انتقلت هذه الأخبار إلى مصر لدرجة أن المقوقس والى مصر وباباها من قبل الإمبراطور منع الدخول إلى مصر والخروج منها حتى لا تصل أخبار المسلمين وانتصاراتهم التى كانت تستبقهم إلى كل مكان فى أنحاء الامبراطورية البيزنطية.

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، كانت وما زالت مصر وأهل مصر ، فى ذاكرة عمرو بن العاص ، مليئة بصنوف الظلم الذى يلاقيهْ أهل مصر والشام وفلسطين فكانت الرغبة الجامحة فى تحرير مصر تلح على عمرو بن العاص .

كما ظل عمرو يحبب تحرير مصر إلى قلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ونشر الإسلام فيها وتحرير شعبها ... فإن مصر تتمتع بسمعة طيبه عند أهل هذه

المنطقة وخصوصا عند أهل الكتاب اليهود والمسيحيين بمختلف طوائفهم ومذاهبهم ، فقد جاء ذكرها فى التوراة والإنجيل مرات ومرات ، وجاء ذكرها فى القرآن الكريم ، هذا ما سوف نطالعه معا فى متن هذه الأوراق على لسان المعاصرين أيضا ....

هكذا ظل عمرو بن العاص يحبب إلى قلب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مصر .... يصفها مرة من واقع رؤيته لها واقامته فيها أياما بل أسابيع وتارة أخرى يقرأ له ما جاء في القرآن الكريم عن مصر وفى وصف مصر - ويذكرة بأحاديث الرسول - وكان عمرو بن العاص يجيد القراءة والكتابة - ويحفظ كثيرا من آيات القرآن الكريم والعديد من الأحاديث .

وسوف نستعرض فى الصفحات التالية بعض آيات الذكر الحكيم عن مصر وأيضا القول المأثور فى فضل مصر والمصريين وكونهم جند الله .

قال تعالى **(اهبطوا مصرا فان لكم ما سألتم)**

صدق الله العظيم (٢ البقرة آية ٦١)

وقال تعالى**(ادخلوا مصر أن شاء الله آمنين)**

صدق الله العظيم (٢١ يوسف أية ٩٩)

وقال تعالى : **أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلاتبصرون)**

صدق الله العظيم (٤٣ الاعراف أبة ٥١)

وقال كعب الأحبار لولا رغبنى فى بيت المقدس لما سكنت إلا مصر .. فقيل له لم ؟ قال : لأنها بلد معافاة من الفتن ومن أرادها بسوء أكبه الله على وجهه . وهى بلد مبارك لأهله فيه ، وقال ابن وهب أخبرنى يحى بن أيوب عن خالد بن يزيد عن ابن ابى هلال أن كعب الأحبار كان يقول إنى لأحب مصر وأهلها لأن مصر بلد معافاة وأهلها أصحاب عافية . ويقال إن فى بعض الكتب الإلهية مصر خزائن الأرض كلها ، فمن أرادها بسوء قسمه الله تعالى ، ومن فضائل مصر أنه ولد فيها من الأنبياء موسى وهارون ويوشع عليهم السلام . ودخلها أيضا يعقوب ويوسف والأسباط عليهم السلام ودخلها أرميا كما دخلها مرقص الرسول ، كما جاء ذكر مصر كثيرا مكنى عنها بالأرض أو أرض مصر مثل قوله تعالى وذلك فى قول سيدنا يوسف عليه السلام **(اجعلنى على خزائن الأرض)**

صدق الله العظيم (١٢ يوسف آية٥٥)

وقال تعالى**(وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض)**

صدق الله العظيم (١٢يوسف آية ٥٦)

وقال تعالى**(قالوا الله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين)**

صدق الله العظيم (١٢ يوسف آية ٧٣)

وقد جاء فى فضل مصر أحاديث ، فقد روى عبد الله بن لهيعة من حديث عمرو بن العاص أنه قال حدثنى

عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضى الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

(اذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا منها جندا كثيفا فذلك الجند خير أجناد الأرض . وقال أبو بكر رضى الله عنه . ولم ذلك يارسول الله ؟ قال : لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة).

وعن عمرو بن الحمقى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : تكون فتنة أسلم الناس فيها أو خير الناس فيها الجند العربى قال فلذلك قدمت عليكم مصر .

وعن تبيع بن عامر الكلاعى قال : أقبلت من الصائغة فلقيت أبا موسى الأشعرى رضى الله عنه فقال لى من أين أنت ؟ فقلت من أهل مصر ، قال من الجند الغربى فقلت : نعم قال : الجند الضعيف ، قال قلت أهو الغربى الضعيف ؟ قال نعم قال : أما أنه ما كارهم أحد [٣] إلا كفاهم الله مؤونته ، اذهب إلى معاذ بن جبل حتى يحدثك قال فذهبت إلى معاذ بن جبل فقال لى ما قال لك الشيخ ، فأخبرته فقال لى : (وأى شئ تذهب به إلى بلادك أحسن من هذه الحديث) .

وروى ابن وهب قال أخبرنى حرملة بن عمران النجيبى عن عبد الرحمن بن شماسة المهدى قال سمعت أباذر الغفارى رضى الله تعالى عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط ، فاستوصوا بأهلها خيرا ، فإن لهم

ذمة ورحمة وفى قول آخر (ذمة وصهرا ، فاستوصوا بالقبط خيرا) .... هكذا أحاديث الجند المسلمين فى لياليهم القمرية يتسامرون فى مضارب خيامهم بحبهم مصر والمصريين ، وكانوا يتسالون ما هى الأرحام التى ذكرها الرسول صلوت الله عليه ، فكانت الإجابه أن أم اسماعيل بن إبراهيم منهم صلوات الله عليها .

وكان يتردد فى المجالس أن محمد بن إسحاق قال للزهرى ما الرحم الذى ذكر رسول الله عليه وسلم قال (كانت هاجر أم إسماعيل منهم ، وروى ابن لهيعة من حديث أبى سالم الجيشانى أن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبره أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنكم ستكونون أجنادا وإن خير أجنادكم أهل الغرب منكم فاتقوا الله فى القبط لا تأكلوا أكل الخضر) وعن مسلمة بن يسار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : استوصوا بالقبط خيرا فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدو) وعن يزيد بن أبى حبيب أن أبا سلمة بن عبد الرحمن حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى عند وفاته) أن تخرج اليهود من جزيرة العرب وقال : الله الله فى قبط مصر فإنهم سيكونون لكم عدة وأعوانا فى سبيل الله .

وروى ابن وهب عن موسى بن أيوب الغافقى عن رجل من الرند أن (رسول الله صلى الله عليه وسلم) مرض وأغمى عليه ثم أفاق فقال: (استوصوا

بالأدم الجعد) ثم أغمى عليه الثانية ثم أفاق فقال مثل ذلك ثم أغمى عليه الثالثة فقال مثل ذلك فقال القوم لو سألنا رسول الله صلى الله عليه وسلم) من الأدم الجعد فأفاق فسأله فقال : (قبط مصر أخوال وأصهار وهم أعوانكم على عدوكم وأعوانكم على دينكم) قالوا كيف يكونون اعواننا على ديننا يا رسول الله قال : يكفونكم اعمال الدنيا وتتفرغون للعبادة ، فالراضى بما يؤتى إليهم كالفاعل بهم والكاره لما يؤتى إليهم من الظلم كالمنتزه عنهم) وعن عمر بن هريب وأبى عبد الرحمن الحلبى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم) قال: إنكم ستقدمون على قوم جعد رؤوسهم فاستوصوا بهم خيرا فإنهم قوة لكم وبلاغ إلى عدوكم بإذن الله) يعنى قبط مصر (٤) .

وعن ابن لهيعة حدثنى مولى عترة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : الله الله فى اهل المدرة السوداء السحمة الجعاد فإن لهم نسبا وصهرا (قال عمرو مولى عترة صهرهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم) تسرى فيهم ، ونسبهم أن أم اسماعيل عليه السلام منهم ، قال ابن وهب فأخبرنى ابن لهيعة أن أم إسماعيل هاجر أم العرب من قرية كانت أمام الفرما من مصر – تانيس – (صان الحجر) . (وقال مروان القصاصى صاهر إلى القبط من الأنبياء ثلاثة إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام تسرى هاجر ، ويوسف تزوج بنت صاحب

عين شمس ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية) وقال يزيد بن أبى حبيب قرية هاجر : التى عندها أم دنين .

وهكذا كان جيوش المسلمين شغوفين بأن يذهبوا إلى مصر من كثرة ما ذكر فيها ومحاسن شعبها .. وفضائلهم ، ومن ناحية أخرى كانت عين عمرو بن العاص على مصر ، وذلك لأهميتها ، وأهمية موقعها وموانيها على شاطئ البحر الأبيض المتوسط وفلسطين ولحماية ظهر المد الإسلامى ببلاد الشام ، ونشر الإسلام فى أفريقية . ولا ننسى زيارة عمرو بن العاص إلى مصر منذ نيف وعشرين عاما مضت وتجواله فى حقولها عبر أفرع النيل ، وأقام فى قراها وبات فى خاناتها وتسامر فى حاناتها مع المصريين ، هؤلاء الجعد الشعور ، فأمضى عشرة أيام بلياليها فى الإسكندرية ، استطاع خلالها أن يستوعب الكثير عنها ، كبعض مفردات لغتها وأصولها ، لذلك كان يلح على الخليفة عمر بن الخطاب بأن مصر أكثر أموالا ، على سبيل الإغراء ، ثم فى أنها أعجز البلاد على سبيل التهوين من المجازفة ، فالجيش البيزنطى فيها منهك ، مفكك ، متحلل ، ناهيك عن شعب المصرى الكاره لهؤلاء الجند المستعمرين ، وهذا كان تهوينا ناجحا ، حتى لقد أجاز له الخليفة عمر أن يبدأ الفتح بأربعة آلاف مقاتل ، واصرار عمرو هذا على دخول مصر ، كان أيضا راجعا إلى الاقتناع الكامل بقدرته على هزيمة قوات الاستعمار

البيزنطية لضعف هذه القوات لما أصابها من إجهاد ووهن ولرغبة المصريين فى التحرر منهم ، وسيكون أعوانا على العدو المشترك وأعوانا على دينهم ، كبشارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وكسر قيود هذا الاستعمار البغيض الذى استمر لأكثر من ألف عام منذ دخول الإسكندرية عام ٣٣٣ قبل الميلاد ، ولعدم رغبة الشعب المصرى فى التعاون مع قوات الاحتلال فى مقاومة قوات المسلمين ، بل على العكس فان عمرو كان يعتقد اعتقادا جازما أن الشعب المصرى يقاوم الاستعمار ، وهكذا لم يجد عمرو بن الخطاب مفرا من الإقرار ، والموافقة على أن يمضى عمرو بن العاص إلى مصر ، وعن إمداده بعد ذلك كى يتم ما بدأه لأن التقاعس بعد دخول مصر يؤدى إلى تجرؤ الروم على العرب واشعارهم بضعفهم ووهن عزيمتهم وثقتهم بأنفسهم ، فلا العدد ولا العدة تكون سببا فى الانتصار على من يحاربونهم ، وربما كان فى ذلك عوض للهزيمة سلفا . وفى هذا المناخ العام ، وخضم الاحداث الجسام والتحولات إلى الدين الجديد من أهل الشام وفلسطين . سواء أكانوا عربا غساسنة أو كانوا من المسيحيين الشوام . والفلسطينيين الذين هم على مذهب آريوس ، وأيضا هؤلاء الذين كانوا فى حيرة من أمرهم لكثرة المذاهب التى كانت سائدة حينذاك ، والتى سبق ذكرها من قبل ...

وهكذا أصبحت هذه الأعداد الغفيرة من المسلمين منتظمة فى النسيج الإسلامى الذى اتسعت رقعته على امتداد الجزيرة العربية وفلسطين والشام حتى جبال طوروس على حدود الإمبراطورية البيزنطية فى الشمال ، وأيضا الأردن والعراق وتخومها المجاورة للإمبراطورية الفارسية فى الشرق .. اصبحت كل هذه المساحات من الأراضى قد تحررت شعوبها ، واعتنق الكثير منهم الإسلام ، وأصبح خلال سنين قليلة لا تتجاوز العشرون عاما ، هؤلاء المسلمون الجدد على استعداد للانضمام فى صفوف المقاتلين من أجل نشر الدين الجديد وتحرير باقى الشعوب المستعبدة المقهورة ... فتطوعوا فى صفوف الجيوش الإسلامية ، وكانت أول هذه الجيوش ، جيش عمرو بن العاص المتأهب لتحرير مصر من الاستعمار البيزنطى وكان هرقل حينذاك مهموما بتنظيم أمور الإمبراطورية ، وكان عليه تدبير أمور الرعية ، فى كل البلاد الشرقية التى اضطربت أمورها خلال فترة الحرب التى إمتدت قرابة ستة أعوام ، وفوق كل ذلك كان يسعى إلى تنفيذ ما أختمر فى ذهنه من أن يوحد مذاهب الديانة المسيحية . على أن يقوم توحيد الديانة على الوفاق لا على الإجبار والقمع .. وكان يعتقد أن زعماء الكنيسة يستطعون أن يوحدوا الديانة فى صورة جديدة وجميله ، تخلب الألباب ، وإذا ما تم ذلك ، صهر مذاهب الخارجين وأهل الهرطقة والخلاف والاختلاف ليخرج منها عقيدة نقية لا

يشوبها الخلاف ، وفى خضم المتغيرات الشديدة الضراوة فى هذه السنوات السريعة الأحداث ، وعلى كل حال ، ذهب الإمبراطور إلى هيرابولس وبدأ فيها تحقيق ما كان يرجو انفاذة من توحيدالكنيسة ، واختيار "إثناسيوس" رئيسا لأساقفة أنطاكية ، وجعل المقوقس "كيرس" رئيسا لأساقفة الإسكندرية وكان هذا الاختيار يحمل بذور نهايته فكان اختيار "المقوقس" واليا لمصر ، سببا فى أن حلت بالبلاد نكبه ، إثر ما دعى إليه من توحيد طبقا لسياسة الإمبراطور ...

والذى لقى مقاومة ومخالفة من كل جانب ، مخالفة الزعيم الملكانى "صفرونيوس" وشيعته ، وخالفه كذلك كل القبط قسوسهم وعامتهم وسنرى فى الصفحات التالية كيف انقلب فى سياسته فقلب للاقباط ظهر المجن ، وحارب مذهبهم إذ رأى أنه لن يستطيع أن يدخلهم بالحسنى فى المذهب الملكانى ، وشرع يحملهم على الخروج من مذهبهم جبرا واضطرارا بالعسف والاضطهاد . وكان الأمر فى الشام وفلسطين لا يقل سوء عن مصر ، إذ خفقت سياسة الإمبراطور هناك أيضا ، فأراد أن يحمل الناس على ما أراد بالقسر والقوة .

فعندما كان المقوقس يهدم ما بناه الإمبراطور بحروبه وانتصاراته على الفرس وهكذا ، كان يمهد الطريق إلى الإسلام كما سيأتى ذكر ذلك فيما بعد (٥) ، على حين كان الاضطهاد فى الشام يمهد له السبيل هناك

إستناسيوس ، غير أن الأمر لم يكن بقسوة كما كان في مصر ... فقد كان استناسيوس اكثر حكمة من قيرس في مصر ، وكان أيضا لوجود هرقل في أراضي الشام أثر في تخفيف حدة الخلافات ومنع الخروج ، ولكن لم يمض عدة سنوات لا تتعدى أصابع اليد الواحدة ، حتى ظهر الضرر المحقق الناشئ من سعي الإمبراطور ، في أمر الكنيسة ، وتوحيدها في عقيدة واحدة ... وهذا ما سوف نطالعه في الفصول التالية (٦) ....

إذا أن هرقل أضاع قواه سدى في نضال لافائدة فيه ، أراد به توحيد الكنيسة ، فلم يستطيع أن يجمع ما بقي من قوى الدولة أو يقود جندها إذا ما أزفت ساعة الخطر واشتدت الأزمة ، فبقي من شدته ثلاث سنين خبت فيها آماله وذوت قوته وذبل نشاطه وعلا أمر الإسلام تحت بصره وسمعه ولم يتحرك لمقاومته ، فمازال الإسلام يعلوا حتى طوى دولته تحت ظله (٧) .

فقد كانت هيبة الإسلام والمسلمين تسبقهم ، فتقع في قلوب أهل تلك البلاد . وكانوا يذعنون لهم خاضعين ، وفي هذا يقول "سيبوس" في رواية واضحة دقيقة يقول : **العرب بعد واقعة اليرموك جازوا نهر الاردن ، وكانت هيبتهم تسبقهم فتقع في قلوب أهل تلك البلاد ، فكانوا يذعنون لهم خاضعين ، وقال وفي تلك الليلة يقصد الليلة التي أعقبت بلوغ أنباء قدوم العرب إليهم "أخذ أهل بيت المقدس الصليب الأعظم وكل ما كان في**

الكنائس من الآنية وجعلوا كل ذلك عند الساحل ثم وضعوها فى سفينة وبعثوا بها إلى دار الملك بالقسطنطينيه" ولم يذكر فى روايتة كلمة واحدة عن هرقل ، ولكن لاشك أن تلك السفينة التى كانت تحمل الكنوز المقدسة سارت إلى الشمال ولحقت بالإمبراطور ، وكان لحوقها به إما فى بعض الثغور التى مر بها فى طريقه إلى عاصمتة إذ كان سفره بحرا .

وإما لحقت بقصره فى هيبريا على مقربة من خلقدونية ، وكان قد أقام بها مدة من الزمن ، وهو فى اضطراب ومرض يفتت عليه الاكباد ، فلما سار إلى العاصمة حمل معه الصليب ، فإعاده إلى كنيسة القديسة صوفيا ، وكان الناس قد فرحوا من قبل أشد الفرح بذلك الصليب ، ورحبوا بمقدمة ظافرا ، ورأوا فيه سر نجاح هرقل ، ثم عاد إليهم بعد ذلك والحزن يخيم على الناس ، وهم يرون فى عودته إليهم ، رمزا لاخفاق مليكهم وخيبته ، ويقينا أن الاقدار لم تسخر من هرقل سخرية أقطع حدا ولا أمر مذاقا من هذا على كثرة ما أنزلته به من النكبات .

وفى ذلك الوقت كانت مدينة بيت المقدس محاصرة بقوات خالد بن الوليد مدعما بقوات أبو عبيدة ، واستمر حصار المدينة طيله شتاء (٦٣٦ – ٦٣٧ م) ولكن لم يكن عند أحد شك فى نهاية الحصار فإن العرب لو عجزوا عن فتح المدينة عنوة بالهجوم ، فإن أهل

المدينة لم يكن بهم قوة على رفع حصار العرب عنها ، ولم تأت من قبل الرومان أنباء تجعلهم يؤملون النجدة ، بل كانت الأخبار تتوالى بالهزائم والنكبات فدب الخوف فى قلوب أهل مدينة بيت المقدس مثل ما حل الخوف والرعب فى قلب الامبراطور ، فلما أن صار الامر إلى ذلك ، فاوض البطريرك الشيخ صفرونيوس قوات العرب من فوق الاسوار وكان الإحساس العام فى قلوب شعوب الشام وفلسطين هو الخوف .

وكذلك القوات الرومية فى مصر ... وهكذا تأهب عمرو بن العاص لتحرير مصر ... وهذا ما سوف نتابعه فى الفصل التالى ... [٨]

هوامش الفصل العاشر

١ - إبراهيم صبرى معوض - تاريخ حياة القديس اثناسيوس (ص ١٢٦)

٢ - المصدر السابق (ص ١٢٨ وما بعدها)

٣ - المقريزى - المواعظ والاعتبار (ص ٢٤)

٤ - كتاب المواعظ والاعتبار - الخطط المقريزية - الجزء الأول (ص ٢٥)

٥ - د. الفريد بتلر - فتح مصر (ص ١٤١)

٦ - د. الفريد بتلر - فتح مصر (١٩١)

٧ - نفس المصدر السابق (ص ١٩٨)

٨ - د. الفريد بتلر - فتح مصر (ص ١٩١ وما بعدها)

الفصل الحادى عشر

تطلع عمرو إلى تحرير مصر

"إن الله عز وجل سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا ، فان لهم منكم صهرا وذمة ورحما ، فانكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال العدو"

(حديث شريف)
صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم

تطلع عمرو
إلى تحرير مصر

بعد أن ألقينا فى الأوراق السابقة الضوء على العلاقة بين الإسلام والإمبراطورية البيزنطية وهى علاقة كان أساسها الحرب ومفرداتها السهام والقوس والرمح وأدواتها الخيل .... وحركتها الكر والفر .. والهجوم والتقدم ، ولكى نتابع تقدم القوات االإسلامية فى تحريرها لأراضى فلسطين والشام ، وتطلع عمرو بن العاص إلى تحرير مصر ، ففى هذا الصدد استسمحك عزيزى القارئ أن نرجع قليلا للوراء لعشرين عاما مضت ، لنرى المناخ العام والصورة الكاملة لهذه المنطقة القلقة - المفعمة بالأحداث الجسام مع بداية حكم هرقل ، فقد كانت الأحوال الاقتصادية مع توليته الحكم

مترديـة ... فقـد كـانـت الظـروف الاجتماعيـة متدهـورة ، ويعـم البـلاد الفوضـى والفسـاد فـــى الإدارة ، وتعـرض الجيش للانحلال والضعف ، وتعرضـت أطـراف الدولـة لأعتداء الآفـار والصقالبـة فـى الغـرب ، والفـرس مـن الشرق .

وبهـذه المناسـبة استسـمحك عزيـزى القـارئ ، لوقوعنا فى مجبرين فى تكرار الأحـداث أحيانـا ، وذلـك لوصـف وشـرح الظـروف العالميـة فتـرة حكـم هرقـل وكسرى أبو رويز بن هرمـز وهـى فتـرة الصـراع بيـن الروم والفرس وتداخل الأحداث ووجهات النظـر وأيضـا التواريخ .

وكذلك وقبل بدء الفـرس (إبـان حكـم كسـرى أبـو رويز بن هرمز) فـى الاسـتيلاء علـى الأجـزاء الشـرقية فهزموا البيزنطيين فى عـام ٦١٣ م عنـد أنطاكيـة وبعـد ذلك استولوا على دمشـق ، ومنهـا اتجهـوا إلـى فلسـطين واستولوا على بيت المقدس فى عـام ٦١٤ م ، واسـتولوا علـى مـا بـه مـن دور وقصـور وأديـرة وكنـائس ونقلـوا الصليب المقدس إلــى عـاصمتهم المدائـن ، وتقـدم جيـش آخر فى اتجاه القسطنطينية وتقدم جيـش آخـر إلـى مصـر فيما بين عامى ٦١٨ م و ٦١٩ م (١) .

ويبدو أن المصريين بكـل مذاهبهـم لـم يبـالوا مـن دخول الفرس إلى مصر كما جاء ذكر ذلك فـى الأوراق السـابقة ، فكـانت الامبـالاة هـى السمة الغالبـة عليهـم ، وكـانت السلبية هى الصفة التى يتصفون بهـا ومـن ناحيـة

أخرى فإن الاحتلال لمصر كان ضربة للدولة البيزنطية ، لأن مصر كانت تمد القسطنطينية بالقمح ، وتسبب عدم وصول القمح إليها في حدوث ضائقة اقتصادية في العاصمة البيزنطية .

وكاد اليأس يصيب هرقل ، ولكنه بدأ في التعبئة للحرب ضد الفرس بصبغة دينية ، ونفث فيها الشعور بالعداء الديني ، وأخذت طابع الحرب الصليبية تشتعل بالحماس ، ضد عبدة النار ، واسترجاع الأراضي المقدسة وإعادة الصليب الذي سلب من بيت المقدس ، وعندما بدأ هرقل في التفكير في الحرب لحماية ظهر الإمبراطورية عقد معاهدة مع الآفار في الغرب ، ولكنهم نقضوا الاتفاق .

ومع ذلك – وأخيرا – استطاع هرقل أن ينهي الصراع البيزنطي الفارسي في عام ٦٢٧ م ، عندما حقق هزيمة ساحقة لقوات الفرس على مقربة من مدينة الموصل الحالية ، وتقدم داخل أراضي فارس لقوات الفرس إلى أن اضطر الفرس لطلب الصلح ، واسترد الروم جميع أقاليمهم التي فقدوها وهي أرمينيا والشام ومصر .

وكان انتصار الروم على الفرس تأكيدا لبشارة القرآن الكريم في سورة الروم كما جاء ذكر ذلك من قبل ، وقد كان أهل قريش يتشيعون للمجوس وكانوا يعايرون المسلمين بهزيمة الروم من قبل .

وعندما عاد الإمبراطور هرقل إلى العاصمة ، استقبل استقبالا هائلا من جانب الشعب ورجال الكنيسة ، وأعضاء السناتو (مجلس الشيوخ) ثم اتجه بعد ذلك إلى بيت المقدس عام ٦٣٠ فأقام من جديد الصليب المقدس في مدينة القدس بعد أن استرده من الفرس [٢] .

وبينما كان الصراع محتدما ، والدماء تجرى أنهارا من كل الأطراف ، كانت هناك أحداث عظام جرت وتجرى فى شبه الجزيرة العربية ، لم تكن لتعنى أيا من أطراف النزاع ، رغم أن أهل الجزيرة عرفوا الكثير عن الفرس والروم ، وذلك بفضل القوافل التجارية العربية التى كانت تقطع الفيافى وتجوب الصحارى – فيما بين مكة والشام حيث رحله الشتاء والصيف ، وهو الطريق الذى سلكه القريشيون وكان كل أهل الجزيرة يشاركون فى هذه الرحلات التقليدية الأبدية وكان فارسنا عمرو بن العاص أحد رجال هذه القوافل ، والذى دخل مصر وهو شاب يافع فى رحلة سريعة كانت منذ أكثر من عشرين عاما مضت ، والتى جاء ذكرها فى فصل سابق ، كانت الأحداث العظام التى نعنيها هى انتشار الرسالة الإسلامية فى أرجاء الجزيرة العربية ، ولم تكن قد انتشرت خارج الجزيرة بعد – ولكن كان مقدرا لها الانتشار خارج هذا النطاق المحدود إلا بقدر ما تنامى إلى أسماع هؤلاء المحيطين بالإمبراطور هرقل ، ووالى مصر قيرس أو (المقوقس) وإلى كسرى إمبراطور الفرس وذلك من محتوى الرسائل ، التى بعث

بها الرسول إلى هرقل إمبراطور الروم وهى بداية الحوار بين الإسلام والإمبراطورية البيزنطية ، والتى كانت تدعوا هرقل إلى الهداية والإسلام ، وفى ذلك السلامة له ولشعوبه ، وتحمله مسئولية استعباد شعوبه وتحمله إثم الآريسيين ، وفى النهاية تدعوة إلى كلمة سواء وفيما يلى نص الرسالة التى بعث بها الرسول صلى الله عليه وسلم إلى هرقل إمبراطور الروم فى العام السادس للهجرة .

إلى هرقل ملك الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام اسلم تسلم ، يؤتيك الله أجرك مرتين فإن توليت فإنما عليك اثم الآريسيين يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء

محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم

وأيضا فى هذا المناخ الضارى ، بل شديد الضراوة ، والذى كانت تنتقل عبره الأخبار بسرعة البرق – من رسائل يحملها السعاة على ظهور الهجن أو على ظهور الجياد ، أو الرسائل التى يحملها الحمام الزاجل عبر الفيافى والصحارى لآلاف الفراسخ وأيضا ما أحست به القيادات العسكرية ، التى تتناوب الحراسة فى الأبراج والقلاع على الحدود عن تحركات القوات العربية الإسلامية والتحرشات التى تمت بجنوب فلسطين ، حينئذ عبئت الجيوش البيزنطية فى العام الثامن للهجرة الموافق ٦٢٦ ميلادية – بعد أن وصلت إليهم الأخبار

عن عزم المسلمين مهاجمة جيوش الرومان (البيزنطيين) ، وبالفعل وصلت الجيوش بقيادة زيد بن حارثة الكلبى إلى قرية مؤتة على تخوم البلقاء جنوب البحر الميت ، وكانت جيوش المسلمين لا يزيد عددها عن ثلاثة الاف مجاهد - بينما جيوش البيزنطيين أضعاف أضعاف هذا العدد ، واستطاعت جيوش المسلمين التغلب على جيوش العدو ، وتأكد للرومان أن هذه القوة الجديدة التى خرجت من شبه الجزيرة العربية ، لم تكن غارة من غارات البدو التى تبغى السلب والنهب . والتى اعتاد الروم قبل الإسلام ، بل رأوا العرب المسلمين لأول مرة فى تاريخهم قد ظهروا مزودين بعقيدة سماوية أدت إلى تماسكهم وتفانيهم فى سبيل عقيدتهم ، ووجد البيزنطيون أمثلة للفداء والاستشهاد ، اذ استشهد ثلاثة من القادة المسلمين وهم يقاتلون فى حماسة وإيمان وإصرار وهم جعفر ابن أبى طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة ، رضى الله عنهم .

واستطاع خالد بن الوليد أن يرفع اللواء ويتجاوز محنة القيادات التى سقطت شهيدة وتغلب على الأعداء (٣) .

وفى العام الثانى عام ٩ هـ الموافق ٦٣٠ م وهو نفس العام الذى تم انتخاب الشعب المصرى لباباهم بنيامين رغم أنف الإمبراطور هرقل والذى قد هرب فية البطريرك إلى مكان مجهول فى صحارى مصر لا يعرفه أحد (٤) ، وهذا ماسوف نطالعه معا عزيزى

القارئ عندما يحرر عمرو بن العام مصر .... وهكذا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ لغزو البيزنطيين فى زمن عسرة على الناس ، وشدة من الحر وجدب في البلاد ، ولذا ... سمى الجيش بجيش العسرة ، وقام الخليفة عثمان بن (٥) عفان رضى الله عنه بنفقة هذه الغزوة ، والتى تكلفت مالا طاقة لأحد به من قبل ، وقاد الرسول صلى الله عليه وسلم حملة تبوك ، وكانت حملة صغيرة بغرض تأمين الحدود الشمالية إلى الجهات المجاورة لتبوك . ثم عاد جيش المسلمين إلى قاعدته فى المدينة بعد أن أقام فى تبوك حوالى أسبوعين وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يستهدف الاستطلاع وتأمين الحدود وذلك تمهيدا للدعوة الإسلامية ، وتحرير بلاد الشام ، وليتأكد العرب من أن دولة الروم زائلة لا محالة ، كما أخبر بذلك القرآن الكريم وطبقا لما استعرضناه فى الصفحات السابقة . وفى العام الحادى عشرة للهجرة انتقل الرسول صلى الله عليه وسلم إلى جوار ربه ، بعد أن كان قد أعد حمله بقيادة أسامة بن زيد بن حارثة – وهو ابن زيد بد حارثة الذى قاد حملة مؤتة واستشهد فيها – وامره الرسول "أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين" (٦) .

وعمل الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضى الله عنه على تحقيق أهداف الرسول صلى الله عليه وسلم اذ بعث أسامة على رأس جيشه إلى شمال بلاد العرب لحرب البيزنطيين ، وخرج الخليفة أبو بكر ماشيا لوداع

أسامة الذى يقود جيش المسلمين ويوصيه ، ويبدو أن غرض الخليفة وقتذاك – كان هو استكشاف مدى قدرة البيزنطيين فى الشام وكانت تعليماته إلى قائد الحملة الالتزام بتوصيات الرسول عليه الصلاة والسلام وأوصاه **بالضعفاء والنساء والشيوخ خيرا ، وحث المسلمين على أن يؤمنوا الناس على أموالهم وأرواحهم ، ولايتعرضون لطقوسهم الدينية ، لتكون تصوفاتهم قدوة ليعرفِ البيزنطيون (الروم) جوهر الإسلام ، وقيمه وتقاليده .**

وبعد أن انتهى الخليفة من حروب الردة ، أعد الجيوش الإسلامية للجهاد فى سبيل الله وتحرير شعوب منطقة الشام والواقعة تحت يد ظلم الروم ، وعقد الخليفة الالوية لأشهر قادة المسلمين وهو أبو عبيدة الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة ، وكانت وجهة عمرو بن العاص إلى فلسطين وكانت وجهة يزيد بن أبى سفيان إلى دمشق ووجهة شرحبيل بن حسنة إلى وادى الاردن ، ووجهة خالد بن الوليد إلى أرض فارس .

وبدأ هرقل فى تجهيز جيوشه لملاقاة المسلمين ، واتفقت الآراء على تجميع الجيوش تحت قيادة واحدة فأعاد الخليفة أبو بكر الصديق القائد خالد بن الوليد من فارس إلى بادية الشام ، واجتازها خالد فى خمس ليال عبر فيها الفيافى والقفار والهضاب وأيضا عبر نهرى دجلة والفرات ، بطريقة تدل على عبقرية عسكرية فذة ، وبالتالى لمعرفة الجيوش الإسلامية وشكل المعارك

الكبرى ، واستطاع خالد أن يجمع شمل المسلمين بعد دخول المناذرة فى الإسلام ومساعدتهم وانضمامهم لجيوش المسلمين ، وأخفى خالد وفاة أبى بكر الصديق عن جنوده وخاض معركة اليرموك ضد الشام وأنزل بهم هزيمة منكرة ، قتل فيها شقيق الإمبراطور هرقل ، وتتابعت الفتوحات الإسلامية وفتحت دمشق فى رجب ١٤ هجرية ، وفى السنة التالية ١٥ هجرية فتحت حمص .

وعلى الجانب الآخر فى الجنوب ، استطاع عمرو بن العاص أن يقضى على جيوش أريطيون وهو القائد البيزنطى – لتلك الجهة وذلك فى موقعة أجنادين .

وكان قتالا ضاربا ، هرب على إثرة القائد أريطيون إلى مصر ، وبعد ذلك تم فتح يافا وعسقلان وغزة وغيرها ، وهى المنطقة التى كان يرعى عمرو بن العاص بها القوافل التجاريه فى شبابه ، وأمضى بها شهورا ، ورجعت به الذكرى عندما زار مصر أول مرة ورافق الشماس المصرى وذلك منذ حوالى خمسة وعشرين عاما مضت – وهكذا فتح عمرو بن العاص بيت المقدس فى أواخر عام ١٥ هجرية الموافق ٦٣٦ ميلادية ، واستمر عمرو فى ملاحقة فلول الجيش البيزنطى من خلال تأييد أهل فلسطين ، وكان سكان القرى المظلومين ، المقهورين يستقبلون عمرو ورجاله بأغصان الزيتون ، واستولى على كل ما حول فلسطين من تخوم ، واستولى على السواحل والمرافئ .

وكان ذلك على إثر حصار بيت المقدس ، مما اضطر قائدها أريطيون إلى الاستسلام بعد حصار أربعة أشهر ، فر هاربا إلى مصر كما ذكرنا من قبل وترك بطريرك القدس يفاوض فى الصلح والتسليم بما يصون المعابد والشعائر .

وعلى أن يكون التسليم للخليفة نفسه - وكان أبو بكر قد مات وتولى عمر بن الخطاب الخلافة ، وجاء بالفعل إلى بيت المقدس ، ووقع وثيقة الأمان وعهوده بنفسه ، كما سيأتى ذكر ذلك فى الفصل التالى ،

(بسم الله الرحمن الرحيم)

هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين أهل ايلياء من الأمان ، أعطاهم أمانا لأنفسهم ولأموالهم ولكنائسهم . وصلبانهم . وسقيمها وبريئها . وسائر ملتها وأنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ، ولا ينفص منها ولا من خيزها ولا من شئ من أموالهم . ولا يكرهون على دينهم . ولا يضار أحد منهم . ولا يسكن بايلياء منهم أحد من اليهود ، وعلى أهل ايلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن) وكان عمرو بن العاص ممن شهد على هذا العهد الذى وقعه أمير المؤمنين ودخلا معا القدس وزارا معا مزاراتها وكنائسها ...

وعندما جاء وقت الصلاة صلى أمير المؤمنين خارج الكنيسة ويبدو أن أحد المصاحبيين قد أشار عليه بالصلاة داخل الكنيسة ولكنه لم يشأ أن يصلى داخل الكنيسة - لكى لا تكون صلاتة داخل الكنيسة سابقة وسنة

يستتها المسلمون ويستخدمون الكنيسة فى الصلاة وتصبح مسجدا فيما بعد كما جاء ذكر ذلك من قبل .

وهكذا طويت صفحة من صفحات كفاح عمرو بن العاص فى ميادين الحرب والتى أخذ منها دروسا فى الكر والفر ، طوال ستة أعوام تقريبا وخصوصا أمام قيادات بيزنطية مدربة وعلى رأسها القائد أريطيون .

وبدأ عمر فى استرجاع الأحداث والتجارب التى وقعت فى الماضى القريب والمعارك الحربية العديدة فى فلسطين مع قيادات عسكرية محنكة من البيزنطين ، كر ... هنا ... وفر ... هناك وحصار ، وتقدم وتقهقر وتجميع قوات وتوزيعها ، ويقينا تنبه وهو فى فلسطين وعندما كان يفتح تخومها أن مصدر الخطر الحقيقى على جيوشه وجيوش المسلمين بعد اليرموك سيكون من جهة الغرب وبالقطع مصر ، درة الإمبراطورية البيزنطية وتاجها ومركز جيوشها وسلاحها ومزرعتها الرئيسية وخصوصا أن أريطيون قائد جيوش فلسطين والشام قد هرب إلى مصر . وهو بالتأكيد يسعى هناك إلى تنظيم جيوشه وتعبئة قواته فى مصر ...

وما من شك فى أن عمرو أدرك أهمية مصر ، ومبلغ خطرها على الدولة الإسلامية الناشئة فى فلسطين والشام ، وكيف أنها المنطلق الحقيقى للروم وهم يتواثبون للانتقام واسترداد ملكهم الضائع ، ففى مصر توجد المؤن والرجال بغير عدد ، ومنها يقطع خط

الرجعة على جيوش المسلمين فى فلسطين والشام ويفصل بينهم وبين الحجاز ...

بهذا الوعى العسكرى ، وتلك البصيرة النافذة أدرك عمرو بن العاص ما لم يصل إليه سواه من معاصريه وأقرانه من القادة الصناديد ومن ناحية أخرى استدعى عمرو الذكريات السابقة ومخزون الأيام عن مصر عندما دخلها منذ أكثر من عشرين عاما مضت - وهو شاب - وتذكر أحوال مصر ويقينا أحس عمرو أن حالتها أصبحت أسوأ وخصوصا بعد احتلال الفرس لها لمدة عشرة أعوام فيما بين عامى ٦٢٠ - ٦٣٠ م تقريبا وتم بعد ذلك دخول البيزنطيون وما زالوا مقيمين يسومون المصريين سوء العذاب .

هذا علاوة على ما تردده الألسن عن القادمين من مصر .. عن أحوالهم وما يلاقوه المصريون من ذل وهوان وما زالت بشارة الرسول صلى الله عليه وسلم عن فتح مصر : "**ستفتحون مصر وهى أرض يسمى فيها القيراط ، واستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما** " ... **فهاجر زوج النبى إبراهيم وأم النبى إسماعيل جد الرسول كانت مصرية ، وحسبك مارية القبطية التى ولدت للنبى إبنه إبراهيم كانت مصرية أيضا .**

وفى قول آخر للرسول لصحابيه فى وجود أمير المؤمنين عمر بن الخطاب "أن **الله عز وجل سيفتح**

عليكم بعدى مصر .. فأستوصوا بقبطها خيرا فإن لهم صهرا وذمة" .

وبذلك كان عمرو فى حياه النبى صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته موقنا أن المسلمين سيحررون مصر والمصريين من ظلم الإمبراطورية البيزنطية ...

كان عمرو بن العاص قائدا مطبوعا متطورا مع ظروف المكان والزمان ، فبدأ فى وضع خطة تشمل أيضا المصادر والموارد الاقتصادية والبشرية ، وخطوط المواصلات وأماكن التحرك وكثافة القتال وفى ذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم : "**اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا فإنهم خيرا أجناد الأرض**" .

ومثل هذا النظرة وحدها هى التى تجعل مصر فى نظر قائد بالمعنى الحديث مكمن الخطر الشديد للرسالة الإسلامية ودعوتها ولا سيما فى الشام ، فمصر مفتاح مستعمرات الإمبراطورية البيزنطية فى شمال أفريقيا – وكما يتضح من النظرة السريعة إلى العالم القديم وقتذاك – فهى ممكن الخطر والثأر من الإمبراطورية التى أصبحت كالذئب الجريح الذى يمكن أن يقوم بهجمةتفصل ما بين جيوش العرب فى فلسطين والشام وقواعدهم الرئيسية فى المدينة ومكة وهكذا فإن نجاحها سوف يهيئ لها بعد ذلك القضاء على فتوح العرب للشام ومن الممكن أن يجهز على قلب الدولة

العربية نفسها ، التى فقدت زهرة رجالها فــى تلـك البـلاد البعيدة .

هذا التخطيط والتصور الموضوعى الواقعــى لـم يخطر ببال أحد من القــواد العـرب غـير عمـرو . وذلـك بحكم إدراكه لكافة الظروف الاقتصادية والاجتماعيــة بمــا فيها حالة الشــعب المصــرى الـذى مـا زال يـرزح تحـت الحكم البيزنطى الظالم الجائر ، هكذا كان عمرو صـاحب فكر استراتيجى بالمعنى الحديـث وبأشمل المعـانى لهـذه الاستراتجية ، وخصوصــا أنــه سـيكون فــى معركـة ضـد الروم ذات الجيش المدرب المنظم والذى خـاض حروبـا مع الفرس فى الشرق ومع الصقالبة والآفار فــى الشـمال . هذا الجيش الذى ذاع صيته ويتردد خـبره علـى ألسـنة الحجاج والرهبان ، والعرب المسـيحيين فـى غسـان مـن أرض الشـام وفلسـطين ، وعلـى ألسـنة التجــار الشــوام والعرب الذين كانت حرفتهم الرحيل او استقبال الوافديـن بتجـارتهم ، فعلـم أن المصرييـن لا يبغضـون شـيئا كمــا يبغضون حكامهم الروم البيزنطيين ولا يتمنون شيئا بقدر ما يتمنون الخلاص من حكـم الـروم وكيـف لا : وجنـود الروم فى شغل دائم باضطهاد المصريين وسوء معاملتهم وقمـع فتنهـم وعصيـانهم السـافر أحيانـا والسـلبى أحيانــا أخرى . وأنهم لا يأمنون على أنفسهم هناك ولا يتوقعون مـن المصرييـن عونـا علـى غـاز قـد يـرون فيـه المنقـذ المخلص لهم من ظلم واستبداد الروم .وليس أسـرع مـن سريان أخبار حوادث الاضطهاد أو الفتن أو التمـرد فـى

الفيافى والصحروات ، لأنها فاكهة المجلس وزاد الركب يشوبها الخيال والإضافات من أساطير قديمة وجديدة مثيرة للاهتمام .. وبالطبع كانت هذه الأخبار تتناهى إلى أسماع عمرو ومن معه ولفراسته بفراسة يعرف ما ورائها وخصوصا أنه تجول فى أرجائها ، وشرب من نيلها وزار مدينة الإسكندرية وارتاد حاناتها وصافح القساوسة والرهبان والشمامسة وجادلهم وتحدث معهم ، وعايش هذا المناخ المعقد الملئ بالحقد والكراهية والتعذيب الضارى ، وحاجة الشعب لمن يحرره ....

وعندئذ نجد أن هرقل كلف قيرس وسرجيوس بطريرك القسطنطنية بنشر مشروع الاتحاد للتقريب بين مذاهب الأرثوذكس (الملكانية واليعاقبة) بمفهوم أن للمسيح مشيئة واحدة وليس (إرادة واحدة) ولا يذكرون فيه على الإطلاق مجمع خلقدونية الذى يكرهه المصريون .

وعين هرقل قيرس واليا على مصر وبطريرك للإسكندرية فأبى البابا بنياميين هذا التحريف وهذا التحديث وهذه الهرطقة وأيضا اعترض على تعيين قيرس هذا واليا وبطريركا ، والخروج على ما تقلده من أبائه ، فأخذ الوالى فى اضطهاده حتى أحس أن حياته فى خطر ، وبالفعل تراءى له ملاك ، يوجهه للهروب كما جاء فى الفصل السابق ، وقال له (اهرب أنت ومن معك من هنا لأن ؟ شدائد عظيمة ستنزل عليكم ولكى تعز فلا يستمر هذا الجهاد سوى عشر سنين) فكتب منشورا إلى

سائر الأساقفة فى أقاليم مصر ينصحهم فيه أن يختفوا من وجه التجربه الآتية عليهم [٧] :

وجمع كهنة الإسكندرية ووصاهم بالسهر على الرعية ، ثم خرج من طريق مريوط وهو سائر على أقدامه ليلا ومعه أثنين من تلاميذه حتى وصل إلى أسقيط القديس مكاريوس ، وكان هذا عقب الخراب الذى دهم هذه البرية من أثر غزو الفرس ، فلم يجد فيها إلا نفرا قليلا تركهم وانصرف إلى الصعيد وسكن هناك فى بلاد ثيباس واختفى فى دير صغير حتى تمت السنين العشر ، ومع عصيان البابا بنياميين ، ورعيته الأقباط المصريين ومع اختفائه) تم القبض على شقيقه مينا ، وكان رجلا مسيحيا ليس متعصبا ... وبدأ الوالى فى تعذيبه أنزل به الوالى البلايا ليعترف بمكان اختفاء شقيقه البابا ، فكان يعذبه بوضع المشاعل المشتعلة فى جنبه ، حتى خرج شحم كليته من جنبه وسال على الأرض ، وخلع أسنانه باللكم لاعترافه بأنة مسيحى وبالأمانة الأرثوذكسية ، وكان هرقل قد أوصى جنوده بأنه إذا قال أحد إن مجمع خلقدونيه حق ، أعفوا وأفرجوا عنه فى الحال ومن قال إنه ضلال اقذفوا به فى البحر ، فنفذوا الأوامر بدقة وملأوا جملة جوالق رملا وطرحوا مينا فى البحر وهم يمسكون الجوالق ، وقالوا له : قل إن مجمع خلقدونيه حق ، وسوف نرحمك ، فأبى أن يقر بأن مجمع خلقدونية حق فما كان منهم إلا أن دفعوا به إلى أعماق المياه ، فمات شهيدا ... [٨]

وتم قتل وتعذيب الآلاف المؤلفة من المصريين الأرثوذوكسيين ممن يحبون باباهم بنياميين فى كل أنحاء البلاد ، وكل من تستر على اختفائه وهروبه وهكذا تعلقت قلوب المصريين على اختلاف مذاهبهم بالبابا بنياميين (البابا الثامن والثلاثين) وتعطلت الشعائر فى أنحاء مصر حينذاك ، ومع اختلاف الناس فى هذا الزمان فى مذاهبهم إلا أنهم كانوا متفقين جميعا على طرد المستعمر بصلواتهم الخفية ، ولعلك عزيزى القارئ - تتفق معى إلى حاجتنا معا لتنشيط ذاكراتنا لاحداث بعينها ، ولمتابعة وقائع جاء ذكرها من قبل وضرورة ذلك لظروف العلاقات المتشابكة ولإبراز زوايا الروؤية وتوضيح الجوانب المختلفة وما تلقيه من ظل وظلال .. وهكذا كانت فراسة عمرو التى صورت مصر وكأنها أصبحت ثمرة ناضجة على شجرة الإمبراطورية البيزنطية ولا تحتاج إلا إلى هزة من نسمة هواء رقيقة حتى تسقط وبذلك يكسب الإسلام درة ثمينة تفوق الشام وفلسطين والعراق وتكون بأهلها حماية للدولة الإسلامية ولا نكون مبالغين إذا قلنا إن الشعب المصرى كان أكثر شعوب الأرض نصيبا من العذاب والهوان ، كما ان مصر مفتاح لكل أفريقيا ، و تقضى فى الوقت نفسه على آخر أمل للرومان فى استرداد ما فقدوه وهكذا فقد البيزنطيون بلاد الشام ، وأجمل أقاليمهم فى الشرق ، ويذكر الطبرى أن هرقل سأل رجلا من الروم كان أسيرا فى أيدى المسلمين ثم هرب ، أن يخبره عن حقيقة

هؤلاء القوم فقال (أحدثك كأنك تنظر إليهم ، فرسان بالنهار ، ورهبان بالليل ، لا يأكلون ما بذمتهم إلا بثمن ، ولا يدخلون إلا بسلام ، يقضون على من حاربهم حتى يأتون عليه ، فقال هرقل : لئن كنت صدقتني ليرثن ما تحت قدمي هاتين).

وعرض عمرو على عمر بن الخطاب خطته لتحرير مصر بهذا التصور الشامل الذى استعرضناه فى الصفحات التى طالعناها ...

وذلك التصور لم يخطر بأبعاده كلها على الأقل - لأمير المؤمنين ولكنه أدراك رأى القائد المطبوع ، ووجهه إلى فتح مصر وتحرير المصريين ...

بجيش لا يتجاوز أربعة آلاف مقاتل .. ووعده أمير المؤمنين بالمدد إن أحتاج إليه فيما بعد والشئ بالشئ يذكر فقد ورد أن عمرو بن العاص ألح على أمير المؤمنين ، وداوم الإلحاح وأصر على إقناع أمير المؤمنين بفتح مصر لضعف القوات البيزنطية ، وإيمانه بقدرته على فتحها واقتناعه باستجابة المصريين لدخول المسلمين وتحريرهم من ظلم الروم ... التهوين من أمر فتحها ، وأخيرا أقتنع الخليفة عمر بن الخطاب وأذن لعمرو بن العاص بالسير إلى مصر وأيا كان ما قيل فى تفاصيل خروج عمرو بجيشه إلى مصر فقد كان من المؤكد أنه بمجرد حصوله على الإذن من الفاروق عمر فى جوف الليل لم يشعر به أحد وهذا يوضح مدى لهفته على السير إلى مصر ، فهو لا ينتظر بزوغ الشمس ،

ومن ناحية أخرى أراد الكتمان ، وما أسرع انتقال الأخبار بين الناس وخصوصا فى أوقات الحرب ، وما أكثر الضالين مع الروم من بقايا صنائعهم وعملائهم وجواسيسهم وتجارب عمرو كثيرة فى معترك الحروب والتحرك فى ظلمات الليل لكى يحقق ستر الأخبار وفى الليل مفاجأة .

وأول حاضرة قابلت عمرو فى طريقه إلى مصر ... كانت مرفأ غزة لذلك وجه إليها من قواد من حاصرها ، وفتحها عنوة وقضى على من فيها من جنود روم ، ويقال أنه قاد حصارها والهجوم عليها بنفسه واستمرت مسيرة عمرو إلى مصر ... ولم تطأ أقدامه أرض مصر ليحارب المصريين بل جاء محررا لهم ، ومخلصا إياهم من ظلم وجور وعسف الروم ، وفى سبيل ذلك كان عليه أن يقاتل الروم أنفسهم ولملاحقة أريطيون غريمه القائد البيزنطى الذى هرب من أمامه عند فتح القدس وهذا ما سوف نعرضه فى الفصل التالى ... متتبعين حركة جيش المسلمين ، وما يهمنا هو ادراك أن عمرو كان يقود جيشه منتقلا بين المواقع ومهاجما للحصون والقلاع وفاتحا الأقاليم والبلاد على غير نظام محدد ، أو نسق واضح ، فهو مثلا يترك حصن بابليون عندما طال حصاره ، ويبعث السرايا إلى الصعيد موغلا فيه ولم يكن هذا جهلا بأصول الحرب وقواعده ففى تاريخ عمرو ما يؤيد حنكته ودهاءه ... فكانت قوات عمرو وخيالته ذات الخيول العربية الأصيلة الرشيقة

الضامرة الخفيفة سريعة الكر والفر وراكبوا الإبل في سرعتهم واجتياز المناطق الوعرة تقابل قوات بيزنطية بفرسانهم الذين يحملون أثقالا من دروع وخوذات وأيضا ما تحمله الخيول نفسها من دروع رقائق المعادن والشبكات النحاسية - مما جعلها ثقيلة يصعب معها ملاحقة الفرسان العرب وفي نفس الوقت ، كان سهلا على الفرسان المسلمين ملاحقة الفارين من قوات الروم وفرسانهم الهاربة وخيولهم الشاردة والقضاء عليهم (٩) .

ويصف الدكتور نظمي لوقا الفرسان العرب وقتذاك بأنهم أشبه في أيامنا هذه بالسلاح الجوى السريع الذى تعدالمفاجأة من أكبر ميزاته وكذلك سرعة الانقاض على غرة ، وجيوش الرومان ثقيلة الحركة وأشبه بالقطعان الكبيرة المقيدة بمواضعها – فأدهى ما ترمى به أن تنقض عليها تلك النسور بين عشية وضحاها على غير توقع .

هوامش الفصل الحادى عشر

١ – حسـنين ربيـع وتـاريخ الدولـة البيزنطيـة – دار النهضـة العربيـة (ص ٦١)
٢ – حسنين ربيع المصدر السابق (ص ٦٣)
٣ – د. حسنين ربيع تاريخ الدولة البيزنطية (ص ٦٧)
٤ – القس منسى متى – تـاريح الكنيسـة القبطيـة – مكتبـة المحبـة – (ص ٢٩٠)
٥ – حسنين ربيع – تاريخ الدولة البيزنطية (ص ٦٧)
٦ – حسنين ربيع – تاربخ الدولة البيزنطية (ص ٦٨)
٧ – القس منسى متى – تـاريخ الكنيسـة الفبطيـة – مكتبـة المحبـة (ص ٣٠٤)
٨ – القس منسى متى – تـاريخ الكنيسـة القبطيـة – مكتبـة المحبـه (ص ٣٠٤)
٩ – نظمى لوقا

كلمه لابد منها

خلال استطلاعنا ودراستنا للمراجع العديدة المختلفة التى حصلنا عليها فى الاستقصاء ، ومعرفة الحقائق من خلالها ، كانت يعتورها القصور ، أو تفتقر إلى التوضيح ... فكانت الدراسة تدفع بنا إلى أن نلجأ إلى المزيد من المراجع والكتابات .... ولكى تتكامل الرؤية من الزوايا المختلفة للرؤية فكل مرجع يفتقر إلى الحقيقة الكاملة ....

فالحقيقة الكاملة عند الله سبحانه وتعالى ، فقط ، فهو سبحانه وتعالى الحق نفسه .... ومن هذا المنطق فأنا مجرد مجتهد فى رحاب الحق والحقيقة ، فأجتهد أن أشير إلى المراجع وأحيانا أنقلها حرفيا مع الإشارة بالطبع إلى أصحابها ، حتى لا يتغير السياق والمعنى بالتالى ، وكذلك لم أشأ أن أعيد صياغتها حتى لا أنال من قميتها خلال إعادة الصياغة ، هذا علاوة على أنها تفى بالغرض ، لذلك استسمحك عزيزى القارئ ، واستسمح أعزائى وإخوتى وأساتذتى أصحاب هذه المراجع العديدة .... التى لجأنا إليها فى تأصيل وتوضيح هذه الرسالة الطويلة وكتبناها بنصها ، ووثقناها لأصحابها ، وعلى الله قصد السبيل .

د . حسين كفافى

كتب ينبغى الإطلاع عليها :

١ – إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الجزء الأول – مكتبة كنيسة مار جرجس – الإسكندرية .

٢ – إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الجزء الثانى – مكتبة كنيسة مار جرجس – الإسكندرية .

٣ – إيريس حبيب المصرى – قصه الكنيسة القبطية – الجزء الثالث – مكتبة كنيسة مار جرجس – الإسكندرية .

٤ – إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الجزء الرابع – مكتبة كنيسة مار جرجس – الإسكندرية .

٥ – إيريس حبيب المصرى – قصة الكنيسة القبطية – الجزء الخامس – مكتبة المحبة .

٦ – القس منسى يوحنا – تاريخ الكنيسة القبطية – مكتبة المحبة .

٧ – طارق البشرى – المسلمون والأقباط (فى أطار الجماعة الوطنية) – دار الشروق .

٨ – دكتور نظمى لوقا – عمرو بن العاص – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر .

٩ – رمزى مخائيل حنا – الوحدة الوطنية – هيئة الكتاب .

١٠ – الاستشهاد فى المسيحية – القمص شنودة السريانى – مطبعة دار العالم العربى – القاهر .

١١ – من تراث القديس اثناسيوس الرسولى إبراهيم صبرى معوض – دائرة المعارف القبطية الأرثوذوكسية .

١٢ – دكتور صوفى أبو طالب – تاريخ القانون فى مصر – دار النهضة العربية .

١٣ – دكتور حسنين ربيع – تاريخ الدولة البيزنطية – دار النهضة العربية.

١٤ – دكتورة سميره بحر – الأقباط فى الحياة السياسية المصرية مكتبة الانجلو المصرية .

١٥ – دكتور مصطفى الفقى – الأقباط فى السياسة المصرية – دار الهلال .

١٦ – الامام محمد أبو زهره – محاضرت فى النصرانية – دار الفكر العربى .

١٧ – محمد الغزال – عقيده المسلم – دار الدعوة للطبع والنشر .

١٨ – أندريه ريمون (ترجمة لطيف فرج) – القاهره – دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع .

١٩ – الدكتور الفريدج بتلر (ترجمة محمد فريد أبوحديد) –فتح العرب لمصر – الناشر مكتبة مدبولى – القاهرة .

٢٠ – دكتور محمد احمد الحفنى – موسيقى قدماء المصريين – المكتبه الثقافيه (الهيئه المصريه العامه للكتاب) .

٢١ – القدس مرقس حبيب مطبعة قاصد خير .
٢٢ – جيمس هنرى بريستد (ترجمة الدكتور سليم حسن) – فجر الضمير – الالف كتاب – الناشر مكتبة مصر دار مصر للطباعة .
٢٣ – د . عبد العزيز صالح – الشرق الأدنى القديم (الجزء الأول مصر والعراق) – الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية .
٢٤ – د . حسين كفافى – محمد على (رؤية لحادثه القلعة) – الهيئة المصرية للكتاب .
٢٥ – د . حسين كفافى – إسماعيل (ومعشوقته مصر) – الهيئه المصرية للكتاب .
٢٦ – د . مراد هوفمان – الإسلام كنديل – مؤسسة بافريا .
٢٧ – عدنان سعد الدين – حوار مع الاستاذ رجاء حارودى – مكتبة وهبة – عابدين .
٢٨ – محمد رمزى – القاموس الجغرافى للبلاد المصرية – خمسة أقسام.
٢٩ – الجبرتى – تاريخ عجائب الآثار (الجزء الأول) – دار الجيل بيروت.
٣٠ – الجبرتى – تاريخ عجائب الآثار (الجزء الأول) – دار الجيل بيروت.
٣١ – الجبرتى – تاريخ عجائب الآثار (الجزء الأول) – دار الجيل بيروت .
٣٢ – المقريزى – المواعظ والاعتبار بتركز الخطط والآثار – الجزء الثانى – المكتبة الثقافية الدينية .
٣٣ – د وليم سليمان ، المسيحية والإسلام فى مصر ، دار سينا للنشر ، ١٨ ش ضريح سعد .
٣٤ – جاك تاجر ، أقباط ومسلمون منذ الفتح العربى الى عام ١٩٢٢ ، كراسات التاريخ المصرى ، ١٩٥١ .
٣٥ – مصطفى الفقى ، الأقباط فى السياسة المصرية ، مكرم عبيد ودوره فى الحركة الوطنية ، القاهرة ، ١٩٨٥ ، دار الشرق .
٣٦ – طارق البشرى ، المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية ، القاهرة الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٨٢ .
٣٧ – محمد عمارة ، الاسلام والوحدة الوطنية ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
٣٨ – وليم سليمان ، طارق البشرى ، مصطفى الفقى الشعب الواحد والوطن الواحد ، الأهرام ١٩٨٢ .
٣٩ – وليم سليمان ، الكنيسة المصرية تواجه الاستعمار والصيهونية ، الهيئة العامة للكتاب ،
٤٠ – أعمال مؤتمر الأقليات فى العالم العربى مكتبة مدبولى .
٤١ – أنور زقلم – المماليك فى مصر – مطبعة المجلة الجديدة .
٤٢ – كريم ثابت – محمد على – دار المعارف – ١٩٤٨ .

من ناحيتنا فنحن لا نركن إلى العواطف الجياشة ولا نستسلم للخيال الجامح ... ولكننا نسسلم لحب المصريين ومصر فقط ، وكانت الوثائق المحايدة ومنطق الأمور رائدنا ..

وهكذا جاهدنا في الكتابه بحياد ومنطق وصدق وفى هذا الصدد سوف نسوتق معا عزيزى القارئ أن المصريين جنس واحد ودم واحد من رحم واحد، فالمصريون (الاقباط) هم أخوال المسلمين فى الغالب الأعم وأيضا أولاد عم بدرجة أخرى.

وهكذا يضم المصريين كلهم وطن واحد أويضمهم وطنية واحدة كما يقول الدكتور فؤاد اسكندر.

وان كانت الأهرمات قد شهدت على روعة الحضارة المصرية وأثرها فان الوحدة الوطنية ، دليل على عراقة وأصاله هذا الشعب العظيم ، الذى رحب على أرضه وفى قلوب أفراده ، بالأديان السماوية ، مع بقاء كل منهم عل دينه وعقيدته ، فيبقى فى النهاية شئ مؤكد واحد وهو أنهم إخوة ، دماؤهم واحدة ، وجنسهم واحد ، وعنصرهم واحد ... حيث الدين لله والوطن للجميع ، أما ما يحدث أحيانا وعلى فترات متباعدة من النباس فى الأمور أو من فتن مصطنعة ، فهى سحب طارئة ، تظهر قليلا ثم تزول ، ولاتترك خلفها إلا شعبا متحدا عطوفا لايعرف الفرقة ولا الانقسام .